رسالة الفصح ٢٠٢٦

المتروبوليت جوزيف، رئيس أساقفة أوروبا الغربيّة في الكنيسة الرومانيّة

أيّها الإخوة والأخوات المحبوبون بالربّ،

المسيح قام!

إنّ أساس إيماننا المسيحيّ ليس مجرّد فكرة، ولا منظومة أخلاقيّة، ولا مجرّد تقليدٍ بسيط، بل هو حقيقةٌ واقعة: قيامة ربّنا يسوع المسيح. ويخبرنا الرسول بولس بذلك جليًّا بقوله: "وَإِنْ لَمْ يَكُنِ الْمَسِيحُ قَدْ قَامَ، فَبَاطِلَةٌ كِرَازَتُنَا وَبَاطِلٌ أَيْضًا إِيمَانُكُمْ" (1 كورنثوس 15: 14). لكنَّ المسيح قد قام! وهذه الحقيقة لا تُغيّر التاريخ فحسب، بل تُغيّر أيضًا حياة كلّ شخصٍ منّا. فالقيامة ليست مجرّد حدثٍ جرى في الماضي، بل هي بدءُ حياةٍ جديدة. وبوساطتها، لا يكتفي الله بإعلان قدرته لنا، بل يفتح لنا الطريق نحو هذه الحياة الجديدة التي لا يفرضها علينا بل يقترحها: "إِذًا إِنْ كَانَ أَحَدٌ فِي الْمَسِيحِ فَهُوَ خَلِيقَةٌ جَدِيدَةٌ: الأَشْيَاءُ الْقَدِيمَةُ قَدْ مَضَتْ، هُوَذَا الْكُلُّ قَدْ صَارَ جَدِيدًا" (2 كورنثوس 5: 17).

إنّنا نعيش في ظلِّ الخوف من الموت، ربّما من دون أن ندرك ذلك بسبب النسيان. وترتبط كلُّ مخاوفنا وقلقنا وصراعاتنا الداخليّة، في جوهرها، بهذا الخوف. غير أنَّ قيامة المسيح تأتي لتُجيبَ تحديدًا عن هذا الخوف الجوهريّ. يقول الربُّ: "أَنَا هُوَ الْقِيَامَةُ وَالْحَيَاةُ. مَنْ آمَنَ بِي وَلَوْ مَاتَ فَسَيَحْيَا" (يوحنّا 11: 25). وبذلك، ما عادَ الموت جدارًا بل بابًا؛ ما عادَ نهايةً بل عبورًا، إنّه فصحنا. يُعبّر القدّيس يوحنّا الذهبيّ الفم عن هذه الحقيقة بقوّةٍ فريدةٍ قائلًا: "لا يخشينَّ أحدٌ الموت، لأنّ موتَ المخلّص قد أعتقنا منه". في ضوء القيامة، لم يعُد الموت متسلّطًا، بل صار مغلوبًا.

إلّا أنّ القيامة لا تتعلّق بنهاية حياتنا فحسب، بل بالحاضر أيضًا. فهي تبدأ منذ الآن، في قلوبنا. كم مرّةً رزحنا تحت وطأة الصعوبات والخطايا والإخفاقات؟ وكم مرّةً شعرنا بأنّنا لم نعُدْ قادرين على المضيِّ قدُمًا؟ هنا تُصبح القيامة حقيقةً حيّة، لأنّ الله يُقيمنا. يقول القدّيس أثناسيوس الكبير: "صارَ الله إنسانًا لكي نصير نحن آلهة"[1] بالنعمة. وهذا يعني أنّنا مدعوّون إلى تغيير حياتنا، أي إلى التجدُّد والاستنارة والتجلّي. لقد جعل الربُّ هذا التجديد في مقدورنا، بوساطة الرُّسل ثمّ بوساطة الأسقف والكاهن، وهو تجديدٌ يصبح حقيقيًّا وفعَّالًا بغفران

[1] Sur l'Incarnation du Verbe, chap. 9, SC 199, Paris, Cerf 1973, p. 459.

الخطايا في سرِّ الاعتراف، مع سرِّ الاشتراك في جسد المسيح ودمه؛ فبهذه العطايا، نصبح مشاركين في قيامته وفي محبّته لنا، تلك المحبّة التي بلغَتْ حدَّ الصَّلب والموت، والتي بها يُجدّدنا باستمرار.

إنّ القيامة هي حقًّا أساسٌ لحياةٍ جديدة، حياة لا يعيش فيها الإنسان لنفسِه، بل في شركةٍ مع الله ومع أخيه الإنسان.

أيُّها المؤمنون الأحبّاء،

على الرَّغم ممَّا ذكرتُه، غالبًا ما لا نعيش هذه الحقيقة. نتصرّف وكأنّ المسيح لم يقُم، ونغرق في الخوف واليأس والهموم. يقدّم لنا الإنجيل مشهدًا معبّرًا جدًّا هو مشهد التلميذين لوقا وكليوبا اللذين كانا يتوجّهان نحو عمواس حزينين وخائبَي الآمال، وإلى جانبهما كان المسيح، لكنّهما لم يعرفاه (لوقا 24: 13-35). يعكس هذا المشهد الحالة التي غالبًا ما نجد أنفسَنا فيها، ونبقى فيها أحيانًا عن عمد، لأنّنا أحيانًا لا نريد أن نراه أو نستقبله أو نفهمه. المسيح حاضرٌ في حياتنا، لكنَّ عيوننا مُغمضة.

لماذا لا نراه؟ لأنّ تطلُّعاتنا خاطئة. نحن نريد إلهًا على مقاسنا، وليس بحسب حقيقته. يقول القدّيس غريغوريوس النزينزيّ إنّ الله يستعلن "على قدر نقاوتنا"[2]. بعبارةٍ أخرى، ليست المشكلة في أنّ الله لا يكشف نفسه، بل في أنّنا لسنا مستعدّين لرؤيته. ولهذا السبب نحن بحاجةٍ إلى الاستنارة. وهذه الاستنارة تأتي من خلال كلمة الله التي ينبغي لنا أن نواظب عليها بقراءة الإنجيل. يقول لنا القدّيس سمعان اللاهوتيّ الحديث: "الكتاب المقدّس هو الباب، أمّا المفتاح فهو أيضًا الكتاب المقدَّس"[3]. بقراءة الكتاب المقدَّس وعيشه، يبدأ قلبُنا بالاشتعال، تمامًا كما اشتعلَ قلبا التلميذَين على طريق عمواس.

إخوتي وأخواتي الأحبّاء،

إنّ العالم الذي نعيش فيه يفرض علينا منطقًا مختلفًا تمامًا: منطق الخوف، والقوّة، والمنافسة. إنَّه عالمٌ يُعرَّف فيه الإنسان غالبًا بما يملك، وليس بما هو عليه. إلّا أنّ المسيح يُرينا سبيلًا آخر. لا ينتصر بالقوّة بل بالمحبّة. لا يتسلّط بل يبذل نفسه.

لقد خصَّصتْ كنيستُنا العامَ الحاليّ لموضوع العائلة، بهدف تعميق المكانة التي يوليها الله لها في الكنيسة والمجتمع. تواجه العائلة اليوم اختباراتٍ قاسيةً من كلّ جانب، لا سيّما من الداخل، من خلال الضعفات التي تظهر بتزايدٍ في داخلها، لدى الزّوجين ثمّ الأطفال، مثل: الأنانيّة، والرغبة في التسلُّط، والسَّطحيّة في التربية،

[2] Discours 27, Sur la théologie, 3, SC 250, Cerf, Paris, 1978.
[3] Catéchèses I, SC 96, Cerf, Paris, 2006.

وفقدان المعنى، وغالبًا ضعف المحبّة بين الزَّوجين، والخوف من الالتزام الطويل الأمد في الحياة الأسريّة لدى مَن يتردّدون في الزواج ونيل هذا السرّ في الكنيسة، وأمور أخرى كثيرة.

يقول القدّيس مكسيموس المعترف إنّ المحبّة هي القوّة التي توُحِّدُ الأشياء كلَّها. ويُشركنا الربُّ المسيح في هذه المحبّة لأنّها تصبح على الصليب مرئيّةً ومفهومة، ثمّ تتحقّق في القيامة، وتُمنَح لنا بحُلول الروح القدس الذي يكشف لنا كلَّ الأسرار المتعلِّقة بالمسيح ويعلِّمنا إيّاها. في ضوء القيامة، وبعمل الروح القدس في قلوبنا، نفهم عندما ننظر نحو المسيح أنَّ القوَّة الحقيقيَّة ليست في التسلُّط، بل في بذل الذات. ليست في الأنانيّة، بل في المحبّة. ليست في محبَّة القوَّة، بل في قوَّة المحبَّة.

إنَّ قيامة المسيح هي أساسُ الحياة الجديدة لأنَّ الروح القدس نفسَه، الذي يشهد للمسيح ويعلِّمنا كلَّ شيءٍ (يوحنّا 15: 26)، يقدّم لنا رؤيةً أخرى في ما يتعلَّق بالعالم وبمشيئة الله لكلّ إنسان، هذه المشيئة التي أعلَنها في ابنه. نحن لا نعيش بعدُ من أجل هذا العالم وحده، بل من أجل ملكوت الله. "فَإِنَّ سِيرَتَنَا نَحْنُ هِيَ فِي السَّمَاوَاتِ" كما يقول الرسول بولس (فيلبّي 3: 20). وهذا لا يعني أنّنا نهرب من العالم، بل أنّنا نعيش فيه بطريقةٍ أخرى، وتحت نورٍ آخر. وهذا يعني أنّنا نستطيع أن نُسامح حتّى عندما يكون ذلك صعبًا علينا؛ ونستطيع أن نحبّ حتّى عندما لا نكون محبوبين؛ ونستطيع أن نتمسّك بالرجاء حتّى في وسط الألم. وذلك لأنّنا نعلم أنَّ الكلمة الأخيرة ليست للموت. "آخِرُ عَدُوٍّ يُبْطَلُ هُوَ الْمَوْتُ" (1 كورنثوس 15: 26). هذا هو إيماننا، وهذه هي قوّتنا.

أيُّها المؤمنون الأحبَّاء،

لسنا مدعوّين فقط إلى أن نقول: "المسيح قام"، بل إلى أن نُظهِر أيضًا، بحياتنا، أنَّ المسيحَ حيٌّ. فلنُصبحْ أبناء القيامة، أي أبناء النور والسلام -حتّى وإن قرعت الحروبُ أبوابنا- وأبناء الغفران والمحبّة. فلندَعْ نورَ القيامة يخترق نفوسَنا. فمن خلال أسرار الكنيسة، وبخاصّةٍ الاعتراف والاشتراك في جسد الربّ ودمه الذي هو فصحنا الحقيقيّ، يأتي هذا النور ليَشفي جراحَنا، وينهضنا من سقطاتنا، ويعطينا القوّة لنستأنف من دون انقطاعٍ ولا كللٍ الطريقَ الذي رسمه المسيح، والذي يؤدّي إلى الخلاص.

عندئذٍ، ستصبح حياتنا كلُّها شهادة، شهادة بأنَّ الموت قد هُزِم، والظُّلمات قد اضمحلَّت، والمسيح حيٌّ! وإذ نتسلَّح بهذا الإيمان وهذا الابتهاج وهذا الرجاء، فلنعترفْ من كلِّ قلوبنا بالحقيقة المُخلِّصة: المسيح قام! حقًّا قام!

خادمكم والمتشفّع لكم لدى المسيح القائم من بين الأموات،

جوزيف

رئيس أساقفة أوروبا الغربيّة ومتروبوليت أوروبا الغربيّة والجنوبيّة في الكنيسة الرومانيّة

نقلتها إلى العربيّة أسرة التراث الأرثوذكسيّ

Source: Métropolite Joseph Pop (2026), *Lettre pastorale pour la Fête de Pâques 2026,* Métropole Orthodoxe Roumaine d'Europe Occidentale et Méridionale, Paris, France. Retrieved online from: Mitropolia.eu.

لماذا ماتَ المسيح؟ الجزء الأوّل

د. جيني كونستانتينو

السؤال: هلّا شرحتِ الفرق بين إيمان البروتستانت بأنّ المسيح قد ماتَ من أجل خطايانا، وإيمان الأرثوذكس بأنَّه مات حُبًّا بنا؟

الجواب: إنَّ الفرق كبيرٌ بين كيفيّة فهمِ الأرثوذكس وكيفيّة فهم البروتستانت والكاثوليك لمعنى الصليب وغايته، ولكنْ يجبُ ألّا نُضخِّم الاختلاف. مثلًا، لا يُنكِرُ البروتستانت أو الكاثوليك كلاهُما أنّ الله يحبُّنا، ولا نحن نُنكر أنَّ المسيح ماتَ بسبب خطايانا. يكمن الفرق في كيفيّة تفسيرنا هذه المفاهيم، وما يترتّب عن هذه الاختلافات في حياتنا الروحيّة.

سأشرح الأمر على نحوٍ عموميّ وواسع، مع الأخذ بعين الاعتبار أنَّ البروتستانت لا يتشاركون جميعًا المعتقدات عينها، لأنّ بعضَهم قد يميلُ إلى التطرُّف في الرأي نحو جانبٍ أو نحو نقيضه. يقبل الكاثوليك أيضًا الكثير من مفاهيم البروتستانت العامّة عن الصليب والخلاص، لكنّهم يقبلون أيضًا معاني إضافيّةً أكثر عُمقًا ويُقدِّرونها.

المصدر الرئيس لمفهوم الصليب في الغرب

إنَّ نظرة مسيحيِّي الغرب إلى الصليب متأثّرةٌ على نحوٍ أساسيّ بكتابات أنسِلم (Anselm)، الذي كان رئيسَ أساقفة كانتربري نحو العام 1100م، وهو أحد قدّيسي الكنيسة الكاثوليكيّة. كتبَ كتابًا لاهوتيًّا شهيرًا جدًّا عنوانه: "Cur Deus Homo" والذي يعني "لماذا صار الله إنسانًا؟". بدأ أنسِلم بالسؤال: "ما هي الخطيئة؟"، وتوصَّلَ إلى الاستنتاج أنّ الخطيئة هي جريمةٌ ضدَّ الله، وأنّنا نستحقُّ بعدلٍ أن نُعاقَبَ عليها، وأنّ الخطيئة هي أيضًا دَينٌ نَدينُ به لله. ولكنّ المشكلة هي أنَّه ما من إنسانٍ كان يمكنه أن يُعاقَبَ بالقدر الذي نستحقُّه. وإذا كانت الخطيئة دَينًا لله، فلا يوجد إنسانٌ يسعهُ تسديد الدَّين لأنّ خطيئتنا كبيرةٌ جدًّا، وحده الله يمكنه أن يدفع الدَّين. غير أنّ الله ليس المدين، بل الدائن. ليس الله مَن ارتكب تعدّي الخطيئة، لذا لا ينبغي له أن يتألّم

بسببها. إذًا، [بحسب أنسِلم] مع أنَّ البشر هم المدينون بهذا الدَّين، أو هم المسؤولون عن "جرائمهم"، لا يسعهُم أن يدفعوا العقوبة؛ وحده الله هو القادر على ذلك.

فسَّرَ أنسِلم أيضًا قائلًا إنَّ الله، مع أنَّه يرغب في مسامحتنا، لا يستطيع أن يغفر الخطيئة ببساطةٍ، لأنَّه عادلٌ والغفران سيُخالف ناموسه. وعليه، استنتج أنسِلم أنَّ ابنَ الله، الذي هو أيضًا إلهٌ تامٌّ، صار إنسانًا لكي يدفعَ الدَّينَ الذي كان علينا لله أو يتكبّد العقوبة التي كنّا نستحقُّها، وذلك بالتألُّم والموت على الصليب.

الكفّارة البديلة أو الاستبدال العقابيّ

تُدعى هذه النظريّة "الكفّارة البديلة" لأنَّ يسوع الذي كان بلا خطيئةٍ حلَّ بديلًا عنّا ليُكفّر عن خطايانا، بمعنى سَداد الالتزام القانونيّ، وهذا هو معنى الفعل "يُكفِّر" (atone) الذي ليس كتابيًّا بل مستعارٌ من نظام العدلِ الإنكليزيّ. تُدعى النظريّة "الاستبدال العقابيّ" لأنّ المسيح حلَّ بديلًا عنّا عندما كابدَ العقوبة التي كنّا نستحقُّها. وبما أنَّ استنتاج أنسِلم بدا "منطقيًّا"، تبنَّت الكنيسة الكاثوليكيّة هذا التفسير على نطاقٍ واسعٍ في العصور الوسطى. ثمّ بعد نحو 400 عام، بدأ الإصلاح البروتستانتيّ، لكنَّ هذه النظرة كانت قد ترسَّخت بقوَّةٍ في فِكر الغرب اللاتينيّ إلى درجةٍ أنَّ البروتستانت لم يُخيَّلْ إليهم البتّة أنَّ هذه النظرة إلى الصليب قد لا تكون صحيحةً أو أنَّه قد يوجدُ فهمٌ أفضل لسبب موتِ المسيح. كانت لدى الكنيسة اللاتينيّة بالفعل نزعةٌ قانونيّةٌ قويّةٌ في منظوراتها اللّاهوتيّة، لذا جاء هذا التفسير متوافقًا تمامًا مع أفكارها. وبمرور الوقت، ترسّخت فكرة أنّ الصليب هو "دفعُ ثمن" الخطيئة حتّى إنّه لم يعُدْ ينافسه مفهومٌ آخر في المسيحيّة الغربيّة.

بالغَ الكثير من المسيحيّين في هذه النظريّة العامّة، فباتوا يقولون إنّ الله الآب "اشترطَ" موت الابن أو "طالبَ به". وقال بعضُ المبشّرين والمعلّمين إنّ الله الآب صبَّ جامَ غضبه على الابن الذي تألّم من أجل كلّ الخطايا التي اقترفتها البشريّة. وقال البعض إنّ الآبَ تخلّى عن الابن على الصليب، أو أعرضَ عنه، أو مفاهيم أخرى مشابهة. يجد الكثير من البروتستانت هذه النظريّة مُلهِمةً جدًّا بسبب ما فعلَهُ المسيح، أو يتمسّكون بهذا التعليم بشدّةٍ، لا بوصفه تفسيرًا منطقيًّا فحسب، بل بوصفه أمرًا ضروريًّا تمامًا، فلَولا ذلك لما جرتْ مغفرةُ الخطايا. من ناحيةٍ أخرى، يجدُ بعض الناس فكرة طلَبِ الله موتَ ابنه بوساطة التعذيب أمرًا مروِّعًا، بسبب الصورة التي تُقدِّمها هذه الفكرة عن الله الآب.

ما الإشكاليّة في فكرة الكفّارة البديلة؟

إنّه تفسيرٌ غير صحيحٍ وغريبٌ تمامًا عن الفِكر الأرثوذكسيّ وفِكر الكنيسة الأولى. لماذا؟

أوّلًا، هذه النظرة تجعل اللهَ "المشكلة". في الواقع، نحن المشكلة لأنّنا قد خطِئنا، في حين أنَّ هذه النظرة تقول بوجود خطْبٍ في الله: يجب تهدئة الله أو إرضاؤه، لذا هو المشكلة التي يجب حلُّها، أو هو مَن يخلق الوضع الذي يحتاج إلى حلّ.

ثانيًا، هذا المفهوم عن الله الآب تجديفيٌّ، وهو إهانةٌ للآب. يصِفُ الله بطريقةٍ بشريّة، وهو غير صحيحٍ لاهوتيًّا. لقد شرحتُ سابقًا أنّ الله "عديم الهوى" (باليونانية: ἀπαθής)، أي أنّه غير متغيّر. لا يتغيّر من حالة هدوءٍ إلى حالة غضب. الله لا يغضبُ أهوائيًّا.

ثالثًا، يُقدّم هذا المفهوم خلاصَنا بوصفه صفقةً ومسألةً تتطلّبُ وفاءً قانونيًّا بالتزامٍ ما. غير أنّ علاقتنا بالله ليست "قانونيّة" بل هي علاقةٌ عائليّة، فقد دعانا المسيحُ أولادَ الله، أبناءَ الله وبناتِه. الله أبونا لا دائنُنا.

رابعًا، يضَعُ هذا المفهوم اللهَ في حالة "إلزام". تقول النظريّة إنّ موت الابن مطلوبٌ لأنّ الله "لا يستطيع" أن يغفر من دون تحقيق مفهومٍ مُعيَّنٍ "للعدالة". لكن، إذا كان الله لا يستطيع أن يغفر ببساطة، وهو ما ينتظر منَّا أيضًا أن نفعله، فهو لا يملك إرادةً حرَّة، ولا يمكنه أن يفعل ما يشاء.

خامسًا، إنّ النظرة إلى الصليب بوصفه دفعًا لدَينٍ في المقام الأوّل يُفقِرُ معنى الصليب الذي هو مجدُ المسيح وغلبته على الخطيئة والموت.

سادسًا، لا يفسّر هذا المفهوم الغرضَ من القيامة، أو هو يجعل القيامة ثانويّةً أو أقلَّ أهميّةً لخلاصنا.

الكفّارة البديلة ليست كتابيّة

سابعًا، ليس هذا المفهوم كتابيًّا ولا هو تعليم الكنيسة القديمة. تأمّلوا في مثل الابن الضالّ: هل طالبَ الأبُ الابنَ بدفع المال الذي أهدره أو بتعويضه؟ هل قَبِلَ الأبُ الابنَ لكنْ قال له إنّه يجب أن يُعاقَب؟ ما هو أهمُّ قولٍ في العهد الجديد عن سبب تجسُّد الابن؟ "لأَنَّهُ هكَذَا أَحَبَّ اللهُ الْعَالَمَ حَتَّى بَذَلَ ابْنَهُ الْوَحِيدَ، لِكَيْ لاَ يَهْلِكَ كُلُّ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ، بَلْ تَكُونُ لَهُ الْحَيَاةُ الأَبَدِيَّةُ" (يوحنّا ٣: ١٦).

لا ينبغي تقييدُ هذا القول البسيط المباشِر بتفسيراتٍ لأحدهم من القرون الوسطى، عبر إضافة عبارة: "لأنّه قَبِلَ العقاب الذي كنّا نستحقُّه ودفَعَ الدَّين الذي كان علينا". لا يُصوِّر العهدُ الجديد الخلاصَ على أنَّه "صفقة"، لكنّ البروتستانت والكاثوليك يُقحِمون هذا التصوُّر مرارًا وتكرارًا في الآيات الكتابيَّة، وهُم يفترضون وجوده فيها لأنَّه هو اللاهوت الذي تبنّاه الغرب على أنّه "تفسيرٌ" للصليب منذ أكثر من 900 عام. يصعبُ عليهم جدًّا تصوُّر الصليب بأيّة طريقةٍ أخرى، أو قراءة آيات العهد الجديد المتعلّقة بالصليب من دون تلك النظرة.

مشكلة استخدام الاستدلال العقليّ البشريّ في التفسيرات اللاهوتيّة

تُعدُّ نظريّة الكفّارة البديلة مثالًا على أسبابِ عدم اعتماد الكنيسة الأرثوذكسيّة على التحليل البشريّ في الإجابات اللاهوتيّة. فكلُّ نتيجةٍ يجري التوصُّل إليها عن طريق التحليل البشريّ تعتمد على المسلَّمات التي ينطلق منها المرء، كما في هذه الحالة. تقولُ النظريّة إنّ المسيح ماتَ لكي يدفع العقاب أو الدَّين الذي كنّا نَدينُ به لله بسبب الخطيئة. لكن ماذا لو لم تكن الخطيئة جريمةً "نستحقُّ" عقابًا عليها؟ ماذا لو لم تكن الخطيئة "دَينًا" "نَدينُ" به لله ومستحيلًا علينا سَداده؟ عندها سيكون استنتاجُ سببِ موت المسيح مختلفًا تمامًا.

على النقيض من ذلك، لطالما حافظت الأرثوذكسيّة على التقليد الرسوليّ الذي اعتبرَ الخطيئةَ في الأساس مرضًا روحيًّا يُلحِق ضررًا بعلاقتنا بالله. فالخطيئة تجعلنا نمرض ونبتعد عن الله. نأتي إلى الكنيسة من أجل الشفاءِ الروحيّ واستعادة علاقتنا بالله وتقويتِها. إنّ الصورة التي تستخدمُها الكنيسة الأرثوذكسيّة إجابةً عن مسألة الخطيئة هي صورةٌ طبّيّة، ولهذا نَصِفُ الربَّ تكرارًا بأنَّه "طبيبُ نفوسِنا وأجسادنا"، وهو أحدُ أقدم ألقاب المسيح. هذه هي الصورة التي كانت لدى الكنيسة الأولى عن المسيح بسبب الخبرة معه بوصفه "شافيًا".

هل طرَحَ أحدٌ هذا السؤال أو أجاب عنه قبل أنسِلم من كانتربري؟

لم يكن أنسِلم أوّلَ مَن طرحَ السؤال: "لماذا صارَ اللهُ إنسانًا؟"، فقد طرحه القدّيس أثناسيوس وأجاب عنه في منتصف القرن الرابع بعبارةٍ شهيرة: "صارَ اللهُ إنسانًا لكي نصير نحن آلهة". وآخرون قَبْله، مثل القدّيسَين يوستينوس الشهيد وإيريناوس، قالوا الأمرَ عينه. كانوا جميعُهم يعبّرون عن التقليد الرسوليّ. وكانت هذه الفكرةَ

القديمةَ عن الخلاص، وهي التألُّه، أي أن نصبح مشابهين لله. لم يقصد القدّيس أثناسيوس أنَّنا نصبح آلهةً حَرفيًّا، بل أنّنا نصبح مثل الله. عندما صار المسيح إنسانًا، جعلَ التألُّهَ والتقدُّسَ ممكنَين لنا، وذلك باتْحادِهِ طبيعتَه الإلهيّة بطبيعتنا البشريّة. إنّ أهمَّ حدثٍ لخلاصنا هو التجسُّد الذي يجعل تقديسَنا وخلاصَنا ممكنَين، لأنّ الخلاصَ هو أن نصبح قدّيسين، ما يُتيح لنا أن نحيا مع الله إلى الأبد، بدلًا من أن يدفع يسوعُ الثمنَ عنّا لندخل الملكوت من دون أن نتبدَّلَ نحن.

ربَّما وصفَ آباءُ الكنيسة أحيانًا الخطيئة في عِظاتهم بأنّها جريمةٌ أو دَين، ولكنْ فقط كصورةٍ من بين صُوَرٍ عديدة. ولم يقدِّم الآباءُ موتَ يسوع من أجلنا بطريقةٍ قانونيّةٍ أو بوصفه صفقةً تجاريّة، وبالتأكيد، لم يُقدِّموه على أنّه أمرٌ طالَبَ به الله أو اشترطَهُ لتحقيق مفاهيم العدالة الإلهيّة. بدلًا من ذلك، جرى الكلام على الخطيئة في الكنيسة القديمة بوصفها مرضًا في المقام الأوّل، ولا يزال الأمر كذلك في الكنيسة الأرثوذكسيّة اليوم.

ردّ القدّيس غريغوريوس اللاهوتيّ

في أواخر القرن الرابع، نفى غريغوريوس اللاهوتيّ نفيًا قاطعًا احتمال وجوب "الدفع" للآب، مُعتمِدًا جزئيًّا على حقيقة أنّ الله لم يطلب موتَ إسحق ابن إبراهيم، وقالَ إنّ البشريّة دُعيَت إلى أن تتقدّس.

"... على أيِّ أساسٍ كان يمكن أن يَسُرَّ دمُ الابنِ الوحيد الآبَ الذي لم يقبل إسحق عندما قدّمه أبوه، بل بدّلَ الذبيحة، مُعطيًا كبشًا مكان الذبيحة الناطقة؟ من الواضح أنّ الآب يقبله، مع أنّه لم يطلب هذا ولا كان بحاجةٍ إليه، وذلك من أجل التدبير الإلهيّ ولكي يتقدّس الإنسان بناسوت الله، ولكي يحرّرنا اللهُ بنفسه ويقهرَ الطاغية بالقوّة" (العظة 45، 22).

لا يتّفق الكاثوليك والبروتستانت معنا، ويسألون:

إذًا، ما الذي يعنيه الأرثوذكس عندما يتّفقون مع فكرة أنّ المسيح ماتَ من أجل خطايانا؟ ماذا عن شرط سفك الدَّم للتكفير عن الخطايا؟ لماذا موتُ المسيح هو ذبيحة؟ لماذا يُدعى موتُ المسيح فديةً أو خلاصًا؟

[سنجيب عن هذه التساؤلات في الجزء الثاني]

نقلتها إلى العربيّة أسرة التراث الأرثوذكسيّ

Source: Dr. Jeannie Constantinou's Newsletter, “Why Did Christ Die? Part 1,” March 2026**.**

بعد الصَّوم

نصيحةٌ للقدّيس يوحنّا الذهبيّ الفم

أيُّها الأحبَّاء، ولو انقضى الصَّوم، فلتثبتِ التقوى في النفوس، وإن انتهى زمن الصَّوم الأربعينيّ، فلا نطرحنَّ ذكراه جانبًا. لا ينزعجنَّ أحدٌ من هذا النُّصح؛ فما أقوله ليس فرضًا لفترةِ صومٍ أخرى، بل رغبةً في أن تستريحوا، وأن تُظهِروا الآن نوعًا أدقَّ من الصَّوم، الصَّوم الحقيقيّ، إذ يمكن للإنسان أن يصوم وإن لم يكن صائمًا.

وكيف يكون ذلك؟ سأخبركم: بينما نتناول الطعام، فلنمتنعْ عن الخطيئة؛ فهذا هو نوع الصَّوم الذي ينفعنا، ومن أجله نمتنع عن الطعام لكي نتمكَّن من العدْوِ في ميدان الفضيلة بيُسرٍ أكبر. لذا، إذا شئنا أن نعتني بالجسد كما ينبغي، ونحفظ النفس بلا خطيئة، فلنتنبهْ ونعملْ بمقتضى ذلك.

سيكون هذا النوع من الصَّوم أيسرَ سبيلاً. أمَّا بخصوص الصَّوم الآخر -أعني به الامتناع عن الطعام- فقد اعتدتُ سماع الكثيرين يقولون إنّهم يجِدون صعوبةً في احتمال عبء الجوع، ويلومون ضعف أجسادهم، ويتشكَّون بمرارةٍ من تدهور صحَّتهم بسبب عدم الاستحمام واقتصار شرابهم على الماء. لا مجال لمثل هذه الأعذار البتّة في الصَّوم عن الخطيئة، إذ يمكن للإنسان أن يتمتّع بهذه الأمور كلِّها، ويقدّم للجسد العناية اللازمة، وفي الوقت عينه، يعتني بالنفس كما يجب.

في الواقع، لستُ أحثّكم الآن على الامتناع عن أيٍّ من هذه الأمور، إنّما ابتعدوا فقط عن الخطيئة، وأظهِروا أمانةً مستمرّةً في هذا الامتناع؛ وبذلك تتمكّنون، في كلِّ مرحلةٍ من حياتكم، من أن تمارسوا الصَّوم الحقيقيّ. لا شيء يمنعكم من التمتُّع باعتدالٍ بما ذكرتُ، أمّا الخطيئة فممنوعةٌ بأشكالها كافَّة.

تنشأ الخطيئة تحديدًا من أمورٍ مثل الاستهتار، والشَّراهة، وكثرة التراخي. ولمَّا كنّا نعلم يقينًا أنَّ هذه الأمور خاطئة، فأنا أحثُّكم على ألّا نرتكب ما هو خطأ بذريعة أنّنا نُروِّحُ عن أنفسنا.

أكرِّرُ الآن ما قلتُه مرارًا: كما أنَّ استهلاك الطعام باعتدالٍ يفيد كثيرًا صحَّة الجسد وحالة النفس، كذلك فإنَّ الإسراف في الطعام يُفسد الإنسانَ كُلَّه، جسدًا ونفسًا. إنَّ الإفراط في الأكل والشُّرب يوهن قوّة الجسد ويُهلك صحّة النفس.

فلنهربْ إذًا من الإفراط، ولا نتهاون في ما يخصُّ خلاصنا. وبما أنّنا نعلم أنَّ الإفراط هو أصل كلِّ شرّ، فلنحرصْ على اقتلاعه؛ فكلُّ أشكالِ الخطيئة تنبعُ من الاستهتار وكأنّه ينبوعها. تجعلنا هذه الرذائل ننزلقُ في الخطيئة كما يُشعل الوقودُ النار؛ فكما أنَّ كثرة الوقود تُضرم نارًا أعظم وترفع ألسنة لهيبها، كذلك الأمر هنا، إذا أسلَمنا أنفسنا إلى الترف والسُّكر، فإنّنا نزيدُ من استعار محرقة خطايانا.

نقلتها إلى العربيّة أسرة التراث الأرثوذكسيّ

Source: St. John Chrysostom, *St. John Chrysostom: Baptismal Instructions*, "The Fifth Instruction," (Mahwah, NJ: Paulist Press, 1963), pp. 80-81. Retrieved online from *Orthodox Ethos*.

رفع الحجاب عن سفر الرؤيا

سلسلة تفسير سفر الرؤيا، الجزء الأوّل (أ)

المتروبوليت أثناسيوس (ليماسول)

إذا كان المسيحُ قريبًا يُغلَبُ الموت

إنَّ سفر رؤيا الرسول يوحنّا هو السِّفر الأخير من العهد الجديد. ليس العهدُ الجديد سِفرًا واحدًا بل هو مجموعةٌ من سبعةٍ وعشرين سفرًا. والسِّفر الأخير، أي رؤيا القدّيس الرسول والإنجيليّ يوحنّا اللاهوتيّ، كان أيضًا آخر ما كُتِبَ من بينها. هو نَصٌّ نبويٌّ يتحدّث عن أحداثٍ مستقبليّة، وعن أحداثٍ تقَعُ الآن، وعن أحداثٍ قد مضَتْ بالفعل، ويشرحها بطريقةٍ خارجةٍ عن المألوف، من خلال الصُّوَر والرؤى والوحي واستخدام الرموز. لقد عاينَ القدّيس يوحنّا الرسول في جزيرة بَطمُس ما كشفه الله له. ومَن زار منكم الجزيرة، يعلم أنَّ الكهف الذي تلقّى فيه يوحنّا الرسول خلال صلاته الرؤيا الموصوفة في السِّفر، لا يزال موجودًا.

تعني كلمة "apocalypse" رفع الحجاب عمّا هو مخفيٌّ ومستور وفي الظلام. إنّها ظهور الأشياء والأحداث والرسائل التي يريد الله أن يُبلّغها للإنسان. وقد أعطى الله يوحنّا الرسول هذه الرؤيا لأنَّه كان ينبغي لنا أن نعرفها. وما حاجتنا إلى معرفتها؟ إنَّ مسار هذا العالم خطّيّ (linear)، فهو يمضي نحو نهاية. وأخبرَنا المسيح عن نهاية العالم؛ أخبرَنا بأنَّ العالَمَ سيبلغ مُنتهاه يومًا ما.

ستقع أحداثٌ وعلاماتٌ مُعيَّنةٌ قبل النهاية، ومن المهمّ أن نتحلّى نحن المسيحيّين بيقظةٍ شديدة. "اسهروا وصلُّوا لئلّا تدخلوا في تجربة" (متّى 26: 41)، هذه هي رسالة المسيح. لماذا يتحدّث عن التجربة؟ لأنَّه كلّما اقتربنا من النهاية ظهرَ المزيد من المُسحاء الكذبة والأنبياء الكذبة. ستتضاعفُ الهرطقات، وسيظهر كثيرون ممَّن يدَّعون أنَّهم أنبياء وقدّيسون وشعب الله، وأنَّهم يتلقَّون رسائل من الله.

ما الذي سيَسعى إليه هؤلاء الأنبياء؟ سيجذبون الناس إليهم. إنَّه لأمرٌ خطير، لأنَّه ليس مجرَّد أذىً جسديّ. على سبيل المثال، قد يقتلنا أحدٌ أو يقطع أيدينا، لكنّ هذا الشرّ سيَلحقُ بأجسادنا فقط. نحن سنموت عاجلًا

أم آجلًا، ولن ينهار العالم إذا قطعوا رؤوسنا قبل ذلك ببضع سنوات. ولكنْ إذا خسرنا نفوسنا، ففي الأمر هلاكٌ أبديّ. إذا وقعنا في التجربة، فإنَّ ذلك سيدوم إلى الأبد. لذا فمن الأفضل للإنسان أن يموت، أو أن يتأذّى جسده، من أن يخسر نفسَه. إلّا أنّ الأنبياء الكذَبة والمُسحاء الكذَبة يسعون لتدمير نفوسنا، ولصَرفنا عن الطريق الحقّ.

إنَّ السَّعي وراء الحقّ ليس أيديولوجيا ما، بل هو الكنيسة. جعل المسيح كنيسته عمود الحقِّ وقاعدته (تيموثاوس 3: 15). إنَّ جسد المسيح هو الكنيسة (جميعُنا، وليس فقط الأساقفة والكهنة والشمامسة)، تمامًا كما نظَّمَها الرُّسل والقدّيسون وسلَّموها لنا. والكنيسة هي حافظة الحقّ وحافظة أسفار العهد الجديد. ولكنْ لا قيمةَ لأسفار العهد الجديد ما لم تضع الكنيسة ختم مُصادقتها على حقيقة هذه الأسفار. اختارت الكنيسة سبعة وعشرين سفرًا وقالت إنَّ هذه الأسفار تحمل الحقّ، وإنَّها تؤلّف أسفار الكتاب المقدَّس المُلهَمة من الله.

نقرأ في رسائل القدّيس أثناسيوس الكبير أنَّه وفقًا لقرارات مجامع أساقفة الكنيسة التي عُقِدَت في ذلك الزمان، لم تقبل كنائسُ محليَّةٌ منفردةٌ العديدَ من أسفار الكتاب المقدَّس (القليل منها، بما فيها سفر الرؤيا). اعتقدت بعض الكنائس المحلّيّة أنّ رؤيا القدّيس يوحنّا اللاهوتيّ لم تكن ضمن مجموعة أسفار العهد الجديد، نظير رسالة بولس الرسول إلى العبرانيّين. ليس مذكورًا في أيّ موضعٍ أنَّ متّى الرسول هو من دوَّن إنجيل متَّى، أو أنَّ إنجيل مرقس قد دوَّنه مرقس الرسول. الكنيسة هي مَن ختمت أنَّ النصَّ الفلانيّ يعود إلى القدّيس مرقس، وأنّ نصًّا آخر يعود إلى القدّيس يوحنّا، وأنَّ غيره من النُّصوص هو للقدّيس بولس. الكنيسة هي مَن عيَّنتْ هذا.

ظهرت الهرطقات منذ السنة الأولى بعد صعود الربِّ إلى السماء وابتداء كرازة الرسل. وحاول الهراطقة إعادة تشكيل التقليد الرسوليّ تبعًا لفهمهم الخاصّ وطريقة تفكيرهم الخاصّة. ماذا فعلوا؟ كتبوا نصوصًا وقالوا: "هذا النصُّ كتبه بولس الرسول (مثلًا)". وكيف كان بإمكان الناس في تلك الأيّام معرفة هويّة الكاتب؟ مَهروا تلك النُّصوص باسم القدّيس بولس أو القدّيس يوحنّا أو القدّيس توما، وقدَّموها للمسيحيّين، وهذه هي الأسفار المدعوَّة منحولة (أبوكريفا) التي يخاف منها الجميع.

إنّ الأناجيل المنحولة هي بصورةٍ أساسيَّةٍ نصوصٌ كتبَها هراطقة، معظمهم غنوصيُّون (الغنوصيّة هرطقةٌ ظهرَت في السنوات الأولى بعد نشوء الكنيسة، وقد تسبَّبتْ بتشويشٍ شديدٍ للناس في تلك الأيّام). كتبوا نصوصًا،

ووقَّعوها بأسماء الرسل -يعقوب الرسول، توما الرسول، بولس الرسول- وقاموا بتوزيعها بين المسيحيّين، مُسبِّبين التباسًا شديدًا. لم يعرف المسيحيّون الأصلَ الدقيق للعديد من النُّصوص.. هل هي حقيقيّة؟ هل هي أصليَّة؟ وحدث تشوُّشٌ فقالت الكنيسة: "لا نقبل من النُّصوص على أنَّها حقيقيّةٌ إلّا تلك التي كتبَها تلاميذُ المسيح، بناءً على رأي تلاميذ الرسل". كان لا يزال تلاميذٌ للرسل على قيد الحياة حينها – القدّيس بوليكاربوس، القدّيس إغناطيوس الأنطاكيّ، وغيرهم من خلفاء الرسل الذين كانوا يعرفون ما الذي تحدّث عنه مُعلِّموهم.

كثيرًا ما نسمع اليوم تُرَّهاتٍ، بل وحتَّى تجاديف تُنسَبُ إلى القدّيس بايّيسيوس. عِشتُ بقربه ستَّ عشرة سنة ولم أسمع أمورًا كهذه منه مطلقًا، فيما يوجد أشخاصٌ زاروه مرّةً، أو ربّما لم يروهُ حتَّى، يكتبون عنه شتَّى أنواع الأمور. مَن كان مِنَّا قريبًا من القدّيس وأصغى إليه ويعرف ما الذي تكلَّم عليه، يمكنه أن يحكم ما إذا كان الشَّيخ بايّيسيوس قد تفوَّه بكلّ هذه السَّخافات المنسوبة إليه. حتّى خلال حياته،كان الناس يأتون ويقولون: "قال القدّيس بايّيسيوس إنَّ الحرب ستبدأ في غضون ثلاثة أيّام!". لم يكن الشَّيخ قد قال شيئًا كهذا، لكنَّ تلك الأقاويل كانت تُتناقَل شفويًّا.

ذات مرّة، أتى إليه رجلٌ وسأله قائلًا:

- أيُّها الشيخ، سمِعنا في أثينا أنَّ الحربَ ستنشب. هل هذا صحيح؟
- حسنًا، وما الذي تفكِّر في فعله إذا اندلعَت الحرب؟
- سيكون من الجيّد أن يعلم المرء إذا كانت الحرب ستندلع. عندها سنقوم بشراء المزيد من كلّ شيء.
- ما الذي تُخطِّط لشرائه؟
- حليب، ملح.
- عزيزي، إذا اندلعت الحرب فهل ستشرب الحليب؟ هل ستقوم بطَهْوِ شيءٍ للأكل؟ إذا اندلعت الحرب، فهل سيتَّجه تفكيرُكَ إلى الطعام وستفرح بأنّ خزائنكَ ممتلئة؟ وهل ستشعر بأنّكَ في خطرٍ إذا لم تُخزِّن شيئًا؟ ما هذا الذي تفكّر فيه؟

كثيرًا ما حرَّفَ الناس معنى كلامه. في إحدى المرّات، زاره رجلٌ وراح يخبره عن أسقف أبرشيَّته. فقال الشيخ إنَّه يعرف ذلك الأسقف. فذهب الرجل إلى الأسقف وأخبره قائلًا: "قصدتُ الشَّيخ بايّيسيوس وقال لي إنَّه يعرفكَ وإنّكَ إنسانٌ رائع!". غير أنّ الشَّيخ لم يقُلْ شيئًا كهذا.

وفي مرّةٍ أخرى، قصد راهبٌ قلّاية القدّيس بابيسيوس لرؤيته، وكان هذا الراهب متسكِّعًا وبسيطًا، ومتطفِّلًا وفظًّا بعض الشَّيء. جاء وجلس مع الشيخ لساعات. انزعج الشَّيخ وقال له: "بما أنَّك لا تملك أسئلة، أعطِني عشر دقائق لأصمت وأصلّي". فظلّ الراهب جالسًا يسأله عن الطقس وما إذا كان المطر سيهطل والطماطم ستنمو والعنب سينضج. هل كان لدى الشَّيخ وقتًا لمثل هذه الأمور؟ ولكنَّه لم يشأ أن يُحزن الراهب. ثمَّ دعاه إلى الذَّهاب إلى الكنيسة وقراءة المزامير. جلس الراهب في الكنيسة وذهب الشَّيخ لقراءة المزامير. كانت لديه رئةٌ واحدةٌ فقط، لذلك كان يتوقّف بين الحين والآخر ويأخذ نفسًا عميقًا. ثمّ جاء رجلٌ ووقف عند نافذة الكنيسة، فأشار إليه الشَّيخ أن ينتظر قليلًا. غادر هذا الراهب الكسول ثمَّ أرسل رسالةً إلى الشيخ. اسمعوا ماذا كتب: "لم يكفِكَ أنَّك أبقَيتني عندكَ ساعاتٍ طويلةً فبدّدتُ الكثير من وقتي، بل اعتبرتَني أيضًا ممسوسًا وأخذتَني إلى الكنيسة لتقرأ عليَّ المزامير، ثمَّ هدَّدتَني".[1]

في أيّامنا، بات من السَّهل علينا أن نُدلي بتصريح، وأن نخبر الناس بأنّه لا علاقة لنا بالشخص الفلانيّ أو النظريّة الفلانيّة أو الأخبار المعيَّنة. يمكنكم إعلام المجتمع من خلال الإنترنت والراديو والتلفزيون والصُّحف، وأن تدافعوا عن الحقيقة. أمّا في زمن الرسل، فكانت توجد معضلةٌ خطيرةٌ في الكنيسة حتّى حقبة القدّيس باسيليوس الكبير: كان الهراطقة يكتبون نصًّا ويمهرونه بأسماء القدّيسين، ويوزِّعون نصوصهم بين المؤمنين؛ وقد تسبَّب ذلك بالكثير من التشوُّش.

قالت الكنيسة: "لا نقبل إلّا ما علَّمَنا إيّاه الرُّسل وخلفاؤهم وتلاميذُ خلفائهم". وهكذا نشأ ما تدعوه الكنيسة بالتقليد الرسوليّ. مَن الذين كانوا شهودَ عيانٍ على المسيح؟ الرُّسل. وما قاله الرُّسل صحيح، لذا كان من الممكن تجميع تعاليم الكنيسة وتحديد القوانين الحقَّة لنُصوص الكتاب المقدّس. واستطاع الناس أن يقولوا إنَّ هذه الأسفار حقيقيّةٌ وأصيلةٌ وحاملةٌ لله، وهي تؤلِّف العهدَين الجديد والقديم.

بهذه الطريقة، حلَّت الكنيسة هذه المشكلة الصعبة التي وجدت خاتمتها النهائيّة في رسائل القدّيس أثناسيوس الكبير. هذه إحدى الإجابات الموجَّهة إلى البروتستانت وشهود يهوه وكلِّ مَن يقول اليوم: "إنَّنا نعترف بالكتاب المقدَّس فقط، وليس بالكنيسة وتقليدها". ما هذا الذي يقولونه؟ الكنيسة هي مَن قامَتْ بتحديد

[1] يبدو أنّ الشيخ كان قد أومأ إلى الرجل الذي عند النافذة مستخدمًا أصابعه بالطريقة عينها التي نومئ بها مهدِّدين أحدَهم "سأريك!" (المترجم).

الأسفار المقدَّسة، وهي التي قالت إنَّها كُتِبَتْ بإلهامٍ إلهيّ. وقال ذلك القدّيس أثناسيوس ومجمع الأساقفة. فكيف يمكنكم أن تقبلوا الأسفار التي اختارتها الكنيسة بينما ترفضون الكنيسةَ نفسَها؟ هذا غير معقول. لقد أرسَت الكنيسة سُلطة الكتاب المقدّس وحقيقته؛ فالكنيسة هي ختم الحقّ، وهي التي تضع ختمَها على ما هو حقٌّ ولا تعترف بما هو باطلٌ أو مزيَّف. إنّ الوسيلة الموثوقة الوحيدة لفهم وتمييز ما قاله لنا المسيح عن الأنبياء الكذَبة والمسحاء الدجّالين والكذَبة، هي الكنيسة، فُلْك الحقّ والخلاص.

نقلتها إلى العربيّة أسرة التراث الأرثوذكسيّ

Source: Metropolitam Athanasios of Limassol (2024). *Revelation: Removing the Veil,* Part 1A. Retrieved online from: *OrthoChristian*.

ORTHODOX LEGACY

رفع الحجاب عن سفر الرؤيا

سلسلة تفسير سفر الرؤيا، الجزء الأوّل (ب)

المتروبوليت أثناسيوس (ليماسول)

قال المسيح إنّنا نَمضي حقًّا نحو النهاية. متى سيحدث ذلك؟ لا يعلم أحد. ربّما بعد ألف عام، أو عشرة آلاف، أو حتّى خمسة ملايين، لا أحد يعرف. ولا ينبغي لهذا الأمر أن يشغل بالَنا. لماذا؟ أوّلًا، لأنّ المسيح أخبرنا بأن لا أحد يعلم عن نهاية العالم، ولا حتّى قديسٌ واحدٌ يعرف ذلك. اللّه وحده يعلم، وهو لم يكشف ذلك لأحد. يُتداول عبر الإنترنت اليوم أنّ نهاية العالم ستكون في العام 2012،[1] ويمكنني أن أؤكّد لكم أنّها لن تكون في العام 2012. قد تأتي في سنواتٍ أخرى، مثلًا في العام 2011، أو العام 2013، أو العام 2015، ولكن ليس في العام 2012. لن يسمح الربّ بتحقُّق النُّبوءات الكاذبة. لذا يمكننا أن ننام قريري الأعين في العام 2012 لأنّ العالم لن ينتهي حينها.

مع ذلك، ثمّة نهايةٌ أخرى، إنّها نهايتنا نحن. وهي ستحدث بالتأكيد، وقريبًا بما فيه الكفاية. إنّ سنواتنا معدودة، وللحياة حدٌّ مرسوم. إذا كنتُم الآن في الخمسين من عمركم، سيبقى لكم عشرون أو ثلاثون أو أربعون أو خمسون سنة أخرى، وهذا كلّ شيء. يجب أن نُسلِّم بأنّ لحياتنا نهايةً وللعالم انقضاء؛ فهُما آتيان لا محالة. ما هو الأمر المهمّ الذي يجب أن نفكّر فيه؟ يجب ألّا نفكّر في توقيت النهاية، بل في كيفيّة لقائها واستقبالها، وفي أنّها ليست في الحقيقة نهاية الحياة، بل هي دخولنا إلى الأبديّة.

سيكون من الجيّد لنا أن نتأمّل في كيفيّة سلوك هذا الطريق، وكيف ستكون علاقتنا بالمسيح في الأبديّة. إذا فكّرنا في ذلك، سنتوقّف عن السّعي لتحقيق شأنٍ عظيم (في هذا العالم)؛ فهذا كلُّه زائل، وستنتهي رحلتكم الأرضيّة، ولن يعرفكم أحدٌ على الأرض أو يتذكّركم. وحده اللّه يتذكّرنا، وحده اللّه يتذكّرنا جميعًا. نقول في الجنائز: "ليكُن ذكره مؤبّدًا". لكنّ الأمر لا يتعلّق بنا نحن البشر؛ فمن غير المنطقيّ أن يقول الناس: "لقد

[1] ألقي هذا الحديث في العام 2010.

فعلتَ الكثير، وسنذكركَ إلى الأبد!". أنتم أنفسكم سترحلون غدًا، ثمّ سأتبعكم أنا، فكيف ستذكرونه؟ أنا لا أحبُّ هذه الكلمات الجوفاء.

عادةً لا أحتمل الاستماع إلى الخطابات التي تُلقى في الجنائز؛ فأُمسِكُ عصايَ وأصلّي لوالدة الإله قائلًا: "كفى يا كلّيّة القداسة!". يتفوّه الناس بالكثير من العبارات الغبيّة... يشبه ذلك المسرح، حيث يجري التلاعُب بآلام الآخرين. يمكنكم الاكتفاء بِقَول بعض الكلمات المُعزّية من دون إحداث هذه الفوضى كلِّها. للأسف، لقد حوّلنا الجنّاز إلى مسرحيّة. الله هو الذي يتذكّر الإنسان، سيحفظكم الله دائمًا في ذاكرته. وعندما نرتّل: "ليكن ذكركم مؤبّدًا، أيُّها الآباء والإخوة المستحقُّون الغبطة والذِّكر المؤبّد"، فهذا يعني أنّكم ستبقون دائمًا في ذاكرة الله.

عندما يذكركم الله، فهذا يعني أنّكم موجودون، وأنّكم أحياء، وأنّكم على شبهه، وأنّ أرواحكم ونفوسكم تستريح فيه. أمّا عندما لا يريد الله أن يذكركم، ولا يريد أن يراكم (ليس لأنّه لا يريد، بل لأنّ نفوسكم هي التي جحدته، ورفضت محبّته، وقطعت صلتها به، وتخلّت عن ذكره الأبديّ)، فهذا شقاءٌ لكم. وقد تحدّث الربُّ عن هذا في الأناجيل. فحاوِلوا أن تقضوا السّنوات القليلة المخصَّصة لكم على الأرض بكرامةٍ أمام الله، لتتمكّنوا من عبور بوّابات الأبديّة والوقوف أمام الله أنقياء، وتائبين، ومتّحدين بنعمته، وأحياء فيه، ومنتصرين على الموت، لكي تغلبوا الفساد، وتغلبوا اليأس، ولا تعيشوا بعيدًا عن الله، بل تحيَون معه إلى الأبد. هذا هو انتصار الله على الموت، وانتصاره على الفساد. هذه هي نهايتنا الشخصيّة.

مع ذلك، لقد أخبرنا الربُّ أيضًا عن نهاية العالم، ففي تلك الأزمنة سيوجد مسيحيّون عائشون. أخبرنا الربُّ عن العلامات التي ستسبق النهاية؛ أخبرنا عن هذه النهاية في الإنجيل وفي رؤيا يوحنّا من خلال الصُّوَر والرموز. غير أنّه لم يكشف لنا ذلك لكي نُصابَ بالذُّعر ونأرق ليلًا، متخيّلين الجراد وهو يهاجمنا، مع تلك الرؤى كلّها التي كُشِفَت للرسول يوحنّا. لقد أراد أن يترك لنا رسالةً شديدة الأهميّة وهي: "لا تخافوا، سينتصر الله في النهاية". ومهما حدث، فالله هو الذي سيغلب. في بعض الأحيان، سيبدو الأمر وكأنَّ ضدَّ المسيح ينتصر، أو أنّ الأنبياء الكذَبة يغلبون. سيسمح لهم الله بفِعل ما يريدون من دون تقييد حرّيّتهم، على قدر ما سيَسمح لهم تراخينا وخبثنا بفعل ذلك.

لكنّ الربَّ سيَضَعُ حدًّا لكلِّ شيء، لا لكي يعاقبنا بل ليمنح الإنسان ميلادًا جديدًا، ويدخله إلى الملكوت الأبديّ، ويعيد كلَّ شيءٍ إلى مساره الصحيح كما كان في البدء، ويُعيد خلق الإنسان على صورة الله؛ حتّى يحيا معه كلُّ من يحبُّه، وتوجد سماءٌ جديدةٌ وأرضٌ جديدةٌ حيث يملك الله، وحيث لا وجع ولا حزن ولا سخافات بشريّة، بل المسيح وحده في كلّ مكانٍ وفي كلّ شيء. لقد ترك لنا الربّ هذه الرسالة المباركة المُفعَمة بالرجاء. أوصانا بألّا نخشى شيئًا. ستسمعون عن حروبٍ وعن مخاطر ستأتي الواحدة تلو الأخرى، فلا تستسلموا لأفكاركم، ولا تخافوا. هكذا يجب أن يكون وهكذا سيكون، لكنّ ذلك سيمضي فلا تخافوا. لا تنظروا إلى ما يحدث الآن، بل انظروا إليه هو الآتي، إلى المسيح ملك كُلّ شيءٍ وملك كلّ مَن قَبِلَهُ وأحبّه.

إنّ إحدى العلامات البارزة على نهاية الأزمنة ستكون ظهور العديد من الأنبياء الكذَبة. وترون اليوم أنّه يوجد أنبياء كثيرون؛ لقد امتلأت الأرض بهم، فقد أمسى كلُّ شخصٍ نبيًّا أو نبيّة. إلّا أنّ النبوّة هي موهبةٌ من الروح القدس، ولا تُعطى مواهب الروح القدس بسرعة، فهي ثمينةٌ جدًّا وذات قيمةٍ عظيمة. تُعطى من أجل غايةٍ محدّدة، وليس عشوائيًّا. لن يتجوّل أحدٌ من الأنبياء الحقيقيّين قائلًا: "أنا نبيّ! لقد كشفَ الله لي كذا وكذا". لن ينشروا ذلك. اعلموا أنّ جميع هؤلاء الأنبياء الذين سترونهم على شاشات التلفزيون وتسمعونهم عبر الإذاعة، الذين سيدّعون أنّ الله أو القدّيسين أو والدة الإله قد كشفوا لهم شيئًا، وأنّهم يتحدّثون مع الله ويتلقّون منه أجوبة، هم في ضلال.

يحمل أنبياءُ الله مواهبَ الروح القدس ويمتلكون في داخلهم سِمات الأنبياء الحقيقيّين. والسِّمة المميِّزة الأولى هي الكنيسة، فمواهب الروح القدس ليست فاعِلةً خارج الكنيسة. لا يوجد أنبياء خارج الكنيسة في أوساط الهرطقات والعقائد الأخرى، بل ثمّة أنبياء كذَبة ومُسحاء كذَبة وأضدادٌ للمسيح. ولا تعمل مواهبُ الروح القدس خارج الكنيسة، فالربُّ قد أسَّسَ الكنيسة وتعمل هذه المواهب داخل جسد المعمَّدين. هذا لا يعني أنَّ الآخرين كلَّهم سيذهبون إلى الجحيم، فهذه أمورٌ مختلفة؛ مواهب الروح القدس شيء، ومَن سيدخل الفردوس شيءٌ آخر، إذ ليس الأنبياء والراؤون وحدهم مَن سيدخلون الفردوس.

أنا لستُ نبيًّا. وربّما قصصتُ عليكم من قبل قصّة تلك المرأة التي اتّصلت بي حين كنتُ في دير ماخيراس، وسألتني قائلةً: "أبانا أثناسيوس، أخبرني بصدقٍ من فضلك، هل لديك موهبة الرؤيا؟". فأجبتُها: "سأقول لكِ بصراحةٍ إنّني، لسوء الحظّ، لا أملك موهبة الرؤيا". فقالت: "ألعلَّك تقول ذلك بدافع التواضع؟". فأجبتُها:

"لا، لا أتمتَّع بمثل هذا التواضع. أودُّ أن أمتلك موهبة الرؤيا، لكنّها لم تُعطَ لي، فماذا عسايَ أن أفعل؟". فسألتْ: "أين يمكنني أن أجد شخصًا لديه هذه الموهبة؟". فأجبتُها: "افتحي دليلَ الهاتف وابحثي، لا بدّ من أن تجدي بعضَ الأنبياء هناك". فقالت متعجِّبةً: "أيُعقَل أن يترك الأنبياء أرقام هواتفهم [في دليل الهاتف]؟".

لن يشغل رجالُ الله أنفسَهم بمثل هذه الترّهات. اذهبوا وقولوا للشيخ بايسيوس أو الشيخ بورفيريوس إنّهما نبيّان، وسوف يظنّان أنّكم فقدتُم عقلكم، مع أنّهما كانا نبيّين حقًّا. من المستحيل أن نتخيّلهما يقولان: "كلامي نبويّ". لقد كانا خجولَين ومتواضعَين جدًّا، كانا صاحبَي تواضعٍ عميق، ولم يتفاخرا قطّ. تُعطى المواهبُ لأشخاصٍ معيَّنين من أجل تنظيم الكنيسة وتشديدها؛ تُعطى لأشخاصٍ نُسّاك، وفاضلين، ومتواضعين للغاية، وأنقياء القلب، وذلك لخير الكنيسة، لا لكي نؤلّف الكتب، أو ننجرف وراء الخيالات، أو نملك أتباعًا وما شابه. لا يعتمد خلاصُنا على ما إذا كنّا قد تنبّأنا أم لا، فالجميع مدعوّون إلى ملكوت الله. لا علاقة للمواهب بالخلاص بهذا المعنى، فالخلاص هو للعالم أجمع. يقول القدّيس يوحنّا السُّلَّميّ:

"اعلمْ أيّها الحبيب أنّ الأودية تتوشّح بالحبوب وبالثمار الروحيّة (مزمور 64: 14). فالوادي هو النفس السحيقة بين الجبال (أعني بها الأتعاب والفضائل)، وهي تبقى على الدوام وادعةً لا صلفَ فيها ولا حركة: ما صُمْتُ ولا سهرتُ ولا نمتُ على الحضيض ولكنّني "اتّضعتُ فخلّصَني الربُّ سريعًا"، كما يقول النبيّ داود (مزمور 117: 6)" (السلّم إلى الله 25: 14).

لم أملك شيئًا إضافيًّا؛ لقد كنتُ أطلب المواهب ولم تأتِني. غير أنّني تواضعتُ وتبتُ، وغيّرتُ طريقة تفكيري، وسألتُ الربَّ الخلاص. التواضع هو الذي يخلّصنا، وليس المواهب. فإذا كنتُم تملكون مواهب ولا تتواضعون، ستُدمّركم هذه المواهب لأنّكم ستسقطون في العُجب والكبرياء.

ذات مرّة، أمسكت امرأةٌ ممسوسةٌ بيَدِ طالبٍ في كلّيّة اللّاهوت، ووضعتها في فمها وبدأت تصرخ: "لقد أحرقتَني، أحرقتَني، أحرقتَني!". فتأثّر الطالبُ بشدّة، وذهب لرؤية الشَّيخ بايسيوس، فقال له الشَّيخ: "لقد فهمتَ الأمر فهمًا خاطئًا تمامًا! هو الذي أحرقَك؛ لقد زرع في ذهنكَ أفكار كبرياء، وجعلكَ تظنُّ أنّكَ شخصٌ مميّز، وأنّ الجميع كانوا ينظرون إليك قائلين: يا له من شابٍّ صالح، حتّى الشياطين تحترق من لمسته". لقد أحرقَ الشرّيرُ هذا الشابَّ بالكبرياء في النهاية.

إن عُجبنا وكبرياءنا عظيمان جدًّا حتّى إنّ الربّ، بداعي محبّته، يحجب عنّا مواهبه صونًا لنا من الهلاك. هل سنحلم حقًّا بأنّنا سنبدأ بصُنع المعجزات وإسعاد الجميع؟ أنا أشكر الله على أنّ جسدي ممتلئ، ولا أريد خسارة وزني. لو بدَوتُ كالهيكل العظميّ لقالَ الناس: "يا له من رجلٍ قدّيس! هو جِلدٌ على عظم. لقد نحَلَ تمامًا من الصَّوم والنُّسك والأسهار". وحينها سأستسلم للتفكير في الحفاوة التي سيُكرّمني بها الناس وكيف سيحبّونني ويدركون أنّني رجلٌ قدّيس. ولكن بدلًا من ذلك، ينظر إليّ الجميع ويفكّرون: "يا له من رجلٍ بدين!" -لقد وجدوا قدّيسًا حقيقيًّا!- "نودُّ أن نعرف كم أكلَ اليوم على الغداء". هذا يجعلنا نتواضع على الأقلّ. وهذا ما أقوله لإخوتي البُدناء: "المجد لله! على الأقلّ هذا يحمينا من الكبرياء!". كنتُ سأصبح متكبّرًا جدًّا لو كنتُ نحيلًا كراهبٍ قدّيس.

نحن نتبيّنُ الأنبياءَ من تواضعهم، ومن انتمائهم إلى الكنيسة. فرِجال الله متواضعون للغاية، ويعتبرون أنفسَهم حقًّا أسوأ من الجميع. ولأمثال هؤلاء يكشف الربُّ أسراره ومشيئته. أُعطيَ الرسول يوحنّا رؤياه ليُذكّرنا بأنّ المسيح هو مَلِكُ العالم. ففي حياتنا اليوميّة وفي حياة العالم بأسره، لن يتحقّق ما يرغب فيه الشيطان ولا ما يسعى له الشرُّ البشريّ، بل ما يشاؤه الله. قد يسود الشرُّ أحيانًا في هذه الحياة الوقتيّة، وقد يموت الناس وهم مظلومون ومُفترى عليهم، لكنّ الربّ آتٍ وسوف يضعُ كلَّ شيءٍ في نصابه، وسوف يبرّر كلَّ مظلومٍ إلى الأبد.

وأين توجدُ الكرامة الحقيقيّة؟ في ملكوت الله الأبديّ، لا في متعة هذا العالم التي أُعطيَت لنا لخمسين أو ستّين أو سبعين عامًا. الكلمة الأخيرة عن كلّ واحدٍ منّا ستصدر عن الله، وهذا هو المهمّ. كلُّ كلامٍ آخر هو فارغ. يمضي كلُّ شيءٍ كالضباب، الصالح منه والسيّئ. والأهمُّ هو ما سيقوله الله عنّي، الكلمة الأخيرة والأهمّ. يمكن للعالم والناس أن يقولوا مُختلف الأشياء، فكلُّ واحدٍ يحكم بطريقته الخاصّة.

يعلّمنا سفر الرؤيا الكثير، بخاصّةٍ عندما نبدأ في التعمُّق بإمعانٍ في كلماته، وعندما نرى كيف يمسك المسيحُ العالم بيدَيه ويتصرَّف بحكمةٍ في جميع الأمور. نحن لسنا منسيّين أو متروكين للقدر. ولكن في الوقت عينه، للشيطان حقوقه وحرّيّته، ولديه مساحةٌ للعمل بناءً على ما يملكه. إنَّ حرّيّة كلّ إنسانٍ محفوظةٌ بحكمةِ تدبير الله ومحبّته. لن يُترك إنسانٌ واحدٌ من دون دينونة الله العادلة.

لطالما كان هناك اهتمامٌ خاصٌّ بسفر الرؤيا. لكنّنا لا نحتاج إلى التمعُّن فيه لمعرفة ما سيحدث في المستقبل - متى سينتهي العالم، ومتى سيكون المجيء الثاني، أو ما إذا كان ضدُّ المسيح قد وُلِدَ أم لا. لا يتحدّث سفر

الرؤيا عن ذلك، بل يوضح كيف يجب أن تستعدّوا لمواجهة هذه الأحداث واجتيازها، وكيف يجب أن تكونوا قبل هذه الأحداث، وكيف يجب أن تطلُبوا المسيح، وكيف تظلُّون أمناء له، وكيف تتجنّبون الانخداع وأنتم ترون ما يجري، وكيف تُبقون أذهانكم وأعينكم مثبّتةً على المسيح، بغضّ النظر عما يحدث حولكم. هذا ما يجب أن تسعوا لتحقيقه. أمّا الباقي فسوف يحدث، ولن نتمكّن من إيقافه.

هل ترون ما يحدث اليوم؟ لقد قرأتُ سفر الرؤيا وأنا في الصفّ الثاني الابتدائيّ، فأُصِبتُ بالارتباك وقلتُ لنفسي: "هل سيسمح الله حقًّا بهذا الشرّ كلّه في العالم؟ هل سيُحرَقُ العالم؟ هل سيأتي الجراد وكلّ ذلك؟". قصدتُ كاهنَ رعيّتنا، وكان رجلًا طيّبًا جدًّا، وقلتُ له: "يا أبانا، لقد قرأتُ سفر الرؤيا، وأنا مرتبكٌ". فأجابني: "يا بنيّ، الله محبّة. ليس الله هو مَن سيفعل بنا هذا، بل البشر هُم مَن سيفعلون هذا كلّه". لقد أجاب ببساطة، ولكن مُتكلّمًا بلاهوتٍ صحيح. في النهاية، الإنسان هو مَن سيُدمّر العالم؛ لن يدمّره الله ولن يأخذ هذا العمل على عاتقه. نحن سنُدمّر كلّ شيءٍ بأنفسنا. فبالأسلحة التي نمتلكها اليوم، يمكن تدمير العالم في لمح البصر. وما من ملاكٍ يُرتّب لنا هذا التلوّث كلَّه الذي في الطبيعة، وهذه الأمراض، بل نحن مَن نقوم بذلك بأنفسنا. هل ترَون ما يحدث؟ نحن نخلق الأمراضَ بأنفسنا، ثمّ نهرع للحُصول على اللّقاحات. هذه كلُّها أعراض، وهي تشير إلى حقيقة أنّ زمان هذا العالم محدَّد. لا أحد يعرف متى بالضَّبط، لكنّ الدمار يحدث، وهو ينتصر. إنّنا نرى ما يدور حولنا، لكننا حين نقرأ ما كُتِبَ قبل ألفَي عام، نلاحظُ سلامَ الله في كلِّ فصل، ونرى كيف يظلُّ الإنسان هادئًا إذا كان الله معه.

أتذكّر الأخت خريستوذولي، وهي راهبةٌ من دير القدّيس هيراكليديوس. كانت عجوزًا ممتلئةً بالنعمة، وبدينةً وبشوشةً وقويّة. في أواخر حياتها، كانت الأخوات يعتنين بها، وبدأت تقول: "سأموت، نهايتي قريبة". نادَت الأخوات لتُعطيَهنَّ الأيقونات التي في قلّايتها، ووزّعتها عليهنّ وطلبَت منهنّ أن يذكُرنها بعد موتها. سألتها الأخوات إن كانت خائفةً من الموت، فاستاءت وأجابتهنّ: "ما الذي تقُلنَه لي؟ ألا تخجلْنَ من التفوّه بأقوالٍ كهذه؟ نحن راهبات - عمّا تتحدَّثْن؟ أنا راهبةٌ منذ خمسين عامًا، فهل سأخاف من الموت؟".

ذهبتُ لزيارتها، فأخبرتني أنّ الأخوات يُجرّبنها، وأنّها بدأتْ تتوتّر من مثل هذه الأسئلة: "ألَيسَ من المخزي أن تخشى الراهبات الموت؟ أنا أحمل المسيح في قلبي، فما هذا الكلام؟ أنا أتناول القُدُسات على أيّة حال". كان الأمر بمنزلة تحدٍّ لها. قالت لي: "أريد شيئًا وحيدًا وهو أن تأتي إلى جنازتي، لكي أراك". قلتُ لها إنّ

الأمر قد لا ينجح إذا ذهبتُ إلى مكانٍ ما. ففي النهاية لا يمكنني الجلوس وانتظار موتها، وكنّا نخطّط للذهاب إلى أورشليم حينها. فقالت: "سأقول للرئيسة أن تضعني في ثلّاجة الموتى حتّى تصِلَ إلى هنا! لا أريد أن أموت وأرحل من دون حضورك". واتّفقنا على أن توضَعَ في الثلّاجة.

وبالفعل، رتَّبَ الربُّ الأمرَ بحسب رغبة قلبها، فقد صودِفَ وجودي في الدَّير في ذلك اليوم، فذهبتُ لرؤيتها. كانت موصولةً بجهاز الأوكسجين وتتنفّس بصعوبة. سألتُها: "كيف حالكِ يا أخت خريستوذولي؟". فأجابتني: "يروندا، بارِكني لأموت الآن، أريد الرحيل". فباركتُها، وقبّلَتْ يدي ورسمَت إشارة الصليب. غادرتُ قلّايتها متّجهًا إلى كوخي، وقبل أن أصِل، بعد خمس دقائق تقريبًا، اتّصلت بي الأخواتُ وقلنَ إنّها رقدت. هكذا رحلَت.

إذا كان المسيح معنا، فالموت يُغلَب. لقد شهدنا رقاد عشرات رجال الله. الموت أمرٌ رهيب، وليس من السَّهل التغلُّب عليه؛ الموت والفساد والشيخوخة والسنوات. ولكن إذا كان المسيح معنا، فهو ينير كلّ شيء. يتحدّث سفر الرؤيا عن رحلةِ البشريّة عبر المشكلات والصعوبات والتجارب والأخطار والصراعات. إلّا أنّ المسيح هو نور الإنسان وسلامه وفرحه، ولذا يمكن للإنسان أن يقبل نهايته ونهاية هذا العالم بسلامٍ عميق. ومثل هذا السَّلام ليس مجرّد شعور. حتّى في ظلّ الألم والصراع البشريّ، قد يملك السَّلام في قلوبنا بسبب حضور الله. نحن مع الله، في يده. يقود الله هذا العالم وحياتي وأطفالي وعائلتي. نقلق أحيانًا بشأن ما سيحدث لأطفالنا عندما نموت؛ بالطبع، هذا أمرٌ متأصِّلٌ في الإنسان، لكن سلِّموا كلَّ شيء لله وتخلّوا عن أفكارٍ كهذه. لا تقلقوا، ضَعوا كلَّ شيءٍ في يدَي الله وسترَون كيف سيهتمّ الربُّ بكلّ شيء. عيشوا كلَّ يومٍ بسلام، في المسيح. كونوا هادئين، ومُسالمِين، وفرحين.

دعونا نُنهي حديثنا التمهيديّ. سننتقل إلى النصّ في المرّة القادمة، وسنبدأ بالإصحاح الأوّل من رؤيا الرسول يوحنّا. إنّه سِفرٌ صعب، لكنّنا سنعمل عليه على قدر المُستطاع.

نقلتها إلى العربيّة أسرة التراث الأرثوذكسيّ

Source: Metropolitam Athanasios of Limassol (2024). *Revelation: Removing the Veil,* Part 1B. Retrieved online from: *OrthoChristian*.

القرعُ على أبواب قلوبنا

الصلاة القلبيّة في زمن التكنولوجيا والتشتُّت، الجزء الرابع

الأب مكسيموس كونستاس

ما هي صلاة يسوع وما مدى قِدَمها؟ مَن الذي يستطيع أن يُصلّيها؟ أين نجدُها في الكتاب المقدّس؟ وبمَ تختلف عن تأمُّلات التقاليد الشرقيّة؟ كيف ينبغي لنا أن نُصلّيها وما الذي سنجدُه بذلك؟

حديثنا اليوم هو عن صلاة يسوع التي نعرف كلُّنا عنها وآملُ أنّنا نُردّدها. لكن، وكما ذكرتُ سابقًا، من المفيد أن نتذكّر أصول الأشياء، وقد يوجدُ في ما بيننا أشخاصٌ لا يعرفون إلّا القليل عن هذه الصلاة.

يُقالُ إنّ الصلاة هي حياتُنا الحقّة. الصلاة هي أسمى مهامِّنا، وهي شركتنا مع الله. من دونها، نغدو منفصلين عن أعماقنا الداخليّة، ونفقدُ شيئًا من جوهر إنسانيّتنا. ومن دونها، نموتُ من الداخل. كتبَ أحدُ الكتّاب المسيحيّين الأوائل قائلًا: "شِختُ عندما هجرتُ الصلاة، وبالعودة إليها استرددتُ شبابي". ليس الشبابُ والشيخوخة مجرّد حالتَين فيزيولوجيّتين، بل هما حالتان روحيّتان أيضًا، فحتّى الشابُّ يمكنه أن يشعر بأنّه عجوز. يقول القدّيس أفرام السريانيّ إنّه حين يُصابُ الإنسان بمرضٍ عُضال ويتوقّف عن تناول الطعام، يعلم أصدقاؤه أنّ الموت قريب. كذلك، إذا رآنا الملائكة قد توقّفنا عن تناول غذاء الصلاة والإفخارستيّا، يغتمّون لأنّهم يرَون نفوسَنا تموت. هذه صورةٌ مؤثّرةٌ جدًّا وتقول الكثير عن ماهيّة الصلاة، وعن التأثير الكونيّ الذي تجلبه حياةُ الصلاة إلى العالم الروحيّ أو لا تجلبه.

الصلاة هي أن ينفتح المرءُ على نبع الحياة الإلهيّة. يتكلّم الكُتّابُ النُّسّاك على القلوب المفتوحة والقلوب الموصَدة. والإنسان الذي لم يقتبل الله أو يدركه بأيّة طريقةٍ كانت، هو شخصٌ موصَد القلب؛ أمّا الإنسان الذي تبدّلَ إلى درجةٍ معيّنةٍ فهو شخصٌ قد بدأ قلبه بالانفتاح. يتكلّم القدّيس يوحنّا الذهبيّ الفم على القلوب الكبيرة والقلوب الصغيرة. بعض القلوب صغيرةٌ جدًّا حتّى إنّها لا تسعُ أيَّ شخصٍ آخر، فيما يملك بعضُ الناس قلوبًا أكبر تسَعُ أفراد عائلاتهم، ويقول القدّيس يوحنّا إنّ قلبَ القدّيس بولس كان كبيرًا جدًّا حتّى إنّه

وسِعَ العالم بأسره. تخيّلوا لو أنّكم تملكون قلبًا كهذا يستطيع أن يعانق الناس والأشياء كلَّها. يملك معظمُنا قلوبًا تتقلَّصُ يومًا بعد يوم، لا لأنّنا أشرار، بل لأنّنا تأذَّينا فنصَبنا دفاعات، ولذا يصعب على القلب أن يكون ما يجب أن يكون عليه طبيعيًّا. مع ذلك، الصلاة هي أن نفتح قلوبنا على نبع الحياة الإلهيّة. الصلاة هي أن نطرحَ زيفَ أفكارنا المضطربة التي تشكّل عالمًا وهميًّا، وندخل إلى الواقع. إنّ المشتّتات تُجزّئ النفسَ هي أيضًا، فنعيش حياةً مزدوجةً وثلاثيّةً حيث الكذبُ يستر الكذبَ. تسترجع الصلاةُ وحدتَنا المفقودة، وحيث تكون الوحدة، سواءٌ أكانت في حياة المرء أم في الرعيّة أم في العائلة، فهذا دليلٌ على أنّ الناس يُصلُّون. وحيث تغيبُ الوحدة وتسود المشاجرات، فهذا دليلٌ على غياب الصلاة. ثمّة أنواعٌ عدّة من الصلاة -الصلوات المكتوبة والعفويّة- لكنّنا نُركّز هنا على إحدى أحبِّ الصلوات إلى القلوب وأشدُّها تأثيرًا.

ما هي صلاة يسوع؟ إنَّها الترداد المستمرّ لعبارة "يا ربّي يسوع المسيح، يا ابن الله، ارحمني أنا الخاطئ". وتوجد صيغٌ أقصر لها مثل "ربّي يسوع المسيح ارحمني"، وحتّى "ربّي يسوع ارحمني". يختار كلُّ شخصٍ الصيغة التي تعبّر عنه، لكنّ المشترك في هذه الصيغ كلِّها هو اسم يسوع الإلهيّ.

مَن الذي يستطيع أن يُصلّي هذه الصلاة؟ صلاة يسوع هي للجميع، لا للرهبان والراهبات فحسب، على حدّ قول القدّيس نيقوذيموس في مقدّمته إلى الفيلوكاليا.

ما مدى قِدَم صلاة يسوع؟ إذا سألتُم المؤرّخين هذا السؤال، فالجواب هو أنّ أقدمَ دليلٍ مدوَّنٍ على ترداد هذه الصلاة موجودٌ في نصٍّ يُدعى "مقال عن الأنبا فيلمون"، وهو النصّ السرديّ الوحيد في الفيلوكاليا. يروي هذا النصّ سيرة الأنبا فيلمون الذي كان أحد آباء الصحراء المصريّين الأوائل. ويعود النصّ على الأرجح إلى القرن الخامس أو السادس، لكنّه يَصِفُ صلاة يسوع بأنّها كانت قد ترسّخَتْ جيّدًا حتّى ذلك الوقت. ولكن في التقليد المقدّس، صلاة يسوع أقدم بكثير. ذكّرَني أحدُ الآباء منذ بضعة أيّامٍ بأنّ صلاة الأعمى كانت: "يا يسوع ابن داود ارحمني"؛ وبالطبع، يركّز سفرُ أعمال الرسل بشدّةٍ على اسم يسوع، لذا توجد أشكالٌ كتابيّةٌ لصلاة يسوع. يقول بولس الرسول في 1 تسالونيكي 5: 17: "صلُّوا بلا انقطاع"، وهو ما اعتُبر منذ مسيحيَّة العصور القديمةِ تكليفًا بالصلاة بلا انقطاع، ولا سيّما صلاة يسوع. دخلَ القدّيس أنطونيوس إلى الكنيسة وسمعَ: "إذا أردتَ أن تكون كاملًا، فاذهبْ وبعْ كلَّ أملاكَكَ ثمّ تعالَ اتبعني"، وصارت هذه الكلمات دافعًا أو حافزًا له. وفي الكتاب الشهير "سائحٌ روسيّ على دروب الربّ" الذي يعود إلى القرن التاسع عشر، يذهبُ

السائح إلى الكنيسة ويسمع آية 1 تسالونيكي 5: 17 التي حرّكتْ شيئًا في داخله وجعلته يشرع في البحث عن صلاة يسوع. إنَّ ذلك الكتاب لعظيم.

مع أنّ علماء العهد الجديد لا يقبلون هذا التعليم، فقد قبِلَت الكنيسة أنّ آية 1كورنثوس 14: 19 التي يقول فيها القدّيس بولس: "أوثر أن أقولَ خمسَ كلماتٍ بذهني (نوس باليونانيّة) بدلًا من أن أقول عشرة آلاف كلمةٍ بلسان"، تشير إلى صلاة يسوع بكلماتها الخمس (باليونانيّة). يهزأ العلماء بهذا التعليم ويقولون إنّه مُقحَم. غير أنّه مناسبٌ ويشير إليه عدّة قدّيسين عُظَماء مثل القدّيس غريغوريوس. لذلك، أظنُّ أنَّه من الواجب علينا أن نقبله، على الأقلّ بوصفه تقليدًا تقويًّا. لا نحتاج إلى هذه الآية لتكون برهاننا، لكنّه تقليدٌ تقويٌّ ومثيرٌ للاهتمام.[1]

يبدو واضحًا أنّ ترداد صلاة يسوع يعكس التعليم الكتابيّ عن طبيعة أسماء الأشخاص، لا سيّما الاسم الإلهيّ. نعرف جميعًا أنّ الاسم متّصلٌ اتّصالًا وثيقًا بالشخص الذي يحمله، واستدعاء الاسم هو استدعاءٌ للشخص الذي يحمله. لذا فمن المنطقيّ أن يتغيّر الاسمُ عندما تتغيّر الحياة، فيصير أبرام إبراهيم، وسمعان بطرس، وشاول بولس، وينال الرهبان والراهبات أسماءً جديدةً خلال رسامتهم الرهبانيّة، لأنّ الاسم مرتبطٌ بعُمقٍ بهويّة الشخص. ليس الاسم اعتباطيًّا أو عرَضيًّا، بل هو ينقل جوهرَ الشيء أو الشخص. عندما سأل موسى الله: "ما اسمُكَ؟"، لم يكن يسأله فعليًّا: "ماذا عليَّ أن أناديكَ؟"، بل: "مَن أنتَ؟". وإذا جدَّفَ أحدُهم على الاسم، هو لا يعتدي على اسمٍ بل على الشخص الذي يحمله. ونعلم جميعُنا عن الاسم الذي يطلقُه اليهودُ المتديّنون

[1] حاشية للمترجم: من المفيد هنا أن نعرض تعليم الأب يوحنا رومانيذس حول هذا الموضوع، لا من باب معارضة ما ذُكر، بل لتقديم مختلف الشروحات الموجودة. يشرح الأب رومانيذس أنّ لفظة ذهن (نوس) كانت قديمًا تعني كلاًّ من الذهن (dianoia) والكلام أو العقل (logos)، ثمّ أخذ الآباء التعبيرَ وأعطوه معنًى مختلفًا، فاستخدموا لفظة "نوس" للإشارة إلى تلك الطاقة النوسيَّة التي تعمل في قلب كلّ إنسانٍ معافىً روحيًّا. ثمّ يقول الأب رومانيذس إنّ بولس الرسول في آية 1كور 14: 15: "أصلّي بالروح، وأصلّي بالذهن أيضًا. أرتّل بالروح، وأرتّل بالذهن أيضًا" كان يقصد معنى الكلمة القديم. من هنا، "الذهن" أو "النوس" لدى بولس الرسول هو القوّة العقليّة، والروح هي النوس بمعناه الحاليّ. يستنتج الأب رومانيذس أنّ آية 1 كور 14: 19: "أوثر أن أقول خمس كلماتٍ بذهني (نوسي) أُعلّم بها آخرين على أن أقول عشرة آلاف كلمةٍ بلسان" تعني أنّه يُفضّلُ أن يقول خمس كلماتٍ، أي أن يتكلّم قليلاً من أجل تعليم الآخرين، بدلاً من أن يُصلّي نوسيًّا. ويقول في موضعٍ آخر إنّ موهبة التكلّم بالألسنة هي الأشكال المختلفة للصلاة النوسيّة (راجع الفصل الأول والفصل الخامس وعشرين من كتاب "اللاهوت الآبائيّ: المحاضرات الجامعيّة للأب يوحنا رومانيذس").

على الله.[2] وسبقَ لي أن تحدّثتُ عن القدّيس سمعان اللاهوتيّ الحديث الذي كان يضغط بعينيه على صفحة الكتاب المقدّس بعد الانتهاء من القراءة بسبب تقواه تجاه الكلمة التي هي أيقونةٌ لفظيّة.

في السنة الأخيرة من الدراسة اللّاهوتيّة، كان التلاميذ يُختبَرون بهذا السؤال: "ما الفرق بين الإنجيل على المائدة وأيقونة المسيح في القبّة؟"، والجواب هو: "المكان". وهذا ما يقوله القدّيس ثيوذوروس الستوديتي بطريقته. فالأوّل هو تجسيدٌ لفظيٌّ للمسيح، والثاني هو تجسيدٌ بصريّ. إنَّ الكلمة والصورة والأشكال الليتورجيّة هي كلُّها أساليب للاستعلان. يقول بولس الرسول في فيليبّي 2: 9-11: "لذلك رفعَهُ اللهُ أيضًا، وأعطاهُ اسمًا فوق كلِّ اسمٍ - المعنى باليونانيّة هو اسمٌ يسمو على كلِّ اسم- لكي تجثو باسمِ يسوع كلُّ ركبةٍ ممّن في السماء ومِن على الأرض ومن تحت الأرض، ويعترفَ كلُّ لسانٍ أنّ يسوعَ المسيح هو ربٌّ لمجدِ الله الآب".

كيف نُردِّد صلاة يسوع؟ يُستحسَن أن نبدأ بترْدادها بصوتٍ مسموعٍ، وهذا ما يُسمّى بالصلاة الشفهيّة (أو بالشِّفاه). وحتّى أولئك الذين اعتادوا منذ سنواتٍ ترداد الصلاة، يمكن للصلاة الشفهيَّة أن تساعدهم على التركيز، مع أنّها في أحيانٍ أخرى تُشتّت -يعتمد الأمر على حالتكم- لكنَّ ترداد الصلاة بصوتٍ مسموعٍ ليس للمبتدئين فحسب. إنّ الذي اختبرَ تردادَ الصلاة شفهيًّا يعلم أنّها تصير مُتعِبة. ثمّ سريعًا جدًّا وعلى نحوٍ طبيعيّ، ما بدأ صلاةً شفهيّةً سيبدأ يتردّد في أذهاننا على نحوٍ غير مسموع. أعتقد أنّه تحوُّلٌ بشريٌّ طبيعيّ، لكنّ الله أيضًا يكون فاعِلًا هنا. توجد أشياء كثيرةٌ لا نتذكّرُها، أمّا صلاة يسوع فتلتصِقُ بنا أسرع وأعمق، وتنتقل من صلاةٍ بالشِّفاه إلى صلاةٍ داخليّة. وبنعمة الله ومجهودنا، ستدخل الصلاة أعمق، فتصير صلاةُ الشِّفاه والعقل صلاةَ القلب في صميم وجودنا. أولئك الذين يختبرون هذا الأمر سيُدركونه فورًا لأنّنا معتادون كثيرًا نمطَ الحياة المشتَّتة والمجزَّأة الذي يجعلنا نبتعد عن الصلاة من دون أن نُدرك ذلك حتّى. يحصل هذا الأمر دائمًا، لكن لا تستاؤوا أو تغضبوا عندما يحدث، بل استرجعوا تركيزكم إلى القلب برِفقٍ واستمرُّوا في ترداد الصلاة من دون أن تفكِّروا في ما حصل. توقّعوا أن يحدث هذا الأمر، واعلموا أنّه ليس بمشكلةٍ عظيمة. فقط عودوا إلى العمل الذي كنتُم تعملونه.

[2] منعتْ اليهوديّة الرابّينيّة لفْظَ اسم يهوه أو كتابته، واستبدلَتْهُ بمصطلح "ha-shem" (أي "الاسم") (المترجم).

أوّل ما يجب أن نفعله هو إعادة الانتباه، أوّلًا إلى العقل ثمّ إلى القلب، لكي نجمع هذين الجانبَين المنفصلَين الموجودَين فينا، ولكي نُعيدَ دمجَ النفس، في صميمها وفي جذرها. وبعد أن ندخل إلى مكان القلب ونجد مكانَ الصَّمت في داخل نفوسنا، يجب ألّا نقبعَ هناك في العدَم "البوذيّ"، بل أن نُردّد من ذلك المكان صلاةَ يسوع بتركيزٍ هادئٍ لكن ثابتٍ على قدر ما نستطيع. لا تضغطوا على أنفسكم أو تتوقّعوا أن تُصلُّوا ساعات. ابدأوا بالقليل وانظروا ما سيَحدث، والأفضل أن يكون ذلك بتوجيهٍ من شخصٍ أكثر تقدُّمًا يمكنه أن يشجِّعكم ويرشدكم.

في التقليد الأرثوذكسيّ والكتاب المقدَّس، القلب هو مركز وجودنا وصميمه، وثمّة الكثير من المعلومات البيولوجيّة التي تدعم ذلك. فأوّل جهازٍ يتشكّل لدى الجنين هو جهاز القلب والأوعية الدمويّة، وتوجد خلايا قلبيّةٌ نابضةٌ بعد 21 يوم من الحمل. وهذا يسبق كثيرًا تشكُّل الدماغ والجهاز العصبيّ، إذ يُخبرنا علماء الأعصاب بأنّ الدماغ لا يكتمل حتّى سنّ الثالثة بعد الولادة. يأتي الدماغ متأخّرًا إلى المشهد الأنثروبولوجيّ. إنّ الخلايا القلبيّة هي الخلايا الوحيدة التي لا تنقسم، ما يعني أنّ تلك التي تبدأ بالخفقان في اليوم الحادي والعشرين ستستمرُّ في ذلك طول حياتكم. يسأل الناس أين المعجزات اليوم، وإنّني أجدُ هذا مُذهلًا! نتكلّم على أشياء صغيرةٍ جدًّا إلى درجة أنّها لا تُرى. من أين تأتي تلك الحياة؟ إنَّه أمرٌ عجيب.

يبدو جليًّا جدًّا أنّ القلب هو مركز الجسد البيولوجيّ. يشبه البذرة التي ينمو منها باقي الإنسان. يقول القدّيس نيقوذيموس في الفصل العاشر من كتاب "حفظ الذهن والقلب" إنّ الذهن نشِطٌ دائمًا، حتّى إنّ بعض الناس يُعرّفون الذهنَ بوصفه نشاطًا. في بعض الأحيان، نعجز عن النَّوم في اللّيل لأنّ الذهن يكون في حالة سباق. يقول القدّيس نيقوذيموس إنّ هذا النشاط كلّه، الذي في معناه اليونانيّ يستلزم مصدرًا، جذره في القلب، ونسمع في الإنجيل عن الأشياء التي تخرج من القلب، مثل الزنى والكبرياء وغيرها... الذهن هو ظاهر القلب بمعنىً ما. جذره وإمكانيّاته هي في القلب، وتفعيله هو ما نختبره في القلب. عندما نتكلّم على إحدار الذهن إلى القلب، نعني إخماد نشاط الذهن والسَّماح لهذه الطاقة التي انتشرت بأن تتجمّع مجدّدًا في مصدرها. هذا ما يعنيه أن يتّحد الذهنُ والقلبُ من جديد.

ثمّة تقليدٌ بيزنطيٌّ رائع في ذكرانيّات الراقدين في الأيّام الثالث والتاسع والأربعين، يقول إنّه مثلما يتشكّل الجسدُ في الرحم من بذرةٍ إلى جسدٍ مكتمِل، كذلك يتفكّك ويتحلّل في عمليةٍ عكسيّةٍ عند الموت. كانوا

يؤمنون بأنّ آخر شيءٍ يتشكّل في الجسد هو أوّل ما يتحلّل، وهو الوجه. فالوجه بتحديده الكامل هو آخر ما يتشكّل، لذا فهو أوّل ما يتحلّل. عند الموت، ترَون الدَّمَ يخرج من وجه الإنسان وملامحه تتبدّل، ثمّ يتغيّر باقي الجسد. وفي الأيّام الثالث والتاسع والأربعين، تتحلّل أعضاءٌ أساسيّةٌ في الجسد كما لو أنّ النفْسَ تتفكّك، وآخر ما يذهب في اليوم الأربعين هو القلب. هذا تقليدٌ تقويّ، لكنّه ليس السبب في إقامة الذكرانيّات، مع أنّه مثيرٌ للاهتمام ويتّسقُ مع الأمور الأخرى التي ذكرتُها. ليس القلب المركز الطبيعيّ للإنسان فحسب، بل هو المركز ما فوق الطبيعيّ (supernatural) [...]

إذًا، القلب هو أيضًا المركز ما فوق الطبيعيّ لأنّه المكان الذي تُزرَعُ فيه بذرة الروح القدس في داخلنا. إلى أيّ مكانٍ آخر ستذهب؟ وهو أيضًا نوعٌ من مركزٍ أبعد من الطبيعة (para-natural) لأنّ القلب هو أيضًا المكان الذي تنبع منه الأشياء السلبيّة كلُّها. إنّ اكتشاف المرء قلبه هو فعل إعادة دمج، وعندما يتّحد القلب والذهن من جديد، يختبر المرءُ فرحًا وبهجةً روحيّان عارمان. يستخدم القدّيس يوحنّا السلّميّ صورة الإنسان الذي يعود إلى بيته بعد سفرٍ طويلٍ ويعانق زوجته وأولاده. غالبًا ما نُشاهد في نشرات الأخبار جنودًا عائدين إلى منازلهم يعانقون زوجاتهم وأولادهم، وهو مشهدٌ مؤثّرٌ للغاية. تخيّلوا أنّ هذا صورةٌ لما يحدث عندما تتّصل من جديدٍ أفكارُكم المجزّأة والمشتّتة وذهنكم الهائم مع الجزء الأعمق من نفوسكم.

أودُّ أن أقول بضعة كلماتٍ عن التنفُّس المرافِق لصلاة يسوع لاعتقادي أنَّه من أكثر الأمور التي يُساءُ فهمُها. فبعضهم يحذّر الناسَ من ذلك، وهذا أمرٌ لا أؤيّده. كما ذكرنا مرارًا وتكرارًا، يصعبُ علينا أن نتحرّر من المشتّتات، وقال أحد أصدقائي الكهنة إنّه يصعب علينا حتّى قول صلاة يسوع مرّةً واحدةً من دون أن نتشتّت. كم نحن بائسون! نعلم أنّه من الصَّعب علينا ألّا نتشتّت. يصعُب علينا أن نجد مركزَنا وندخل إلى مكان القلب؛ وما إن ندخل، نستصعبُ البقاء هناك لأنّ اهتمامات الحياة تُشتّتنا. ولهذا، يعلّمنا معلّمو صلاة يسوع أن نركّز على التنفُّس أوّل الأمر. عندما يركّز الذهن على النفَس، فإنّ الذهن الهائم الذي كان خارج الجسد يتّحدُ الآن بالجسد، وهذه خطوةٌ أولى عظيمةٌ لأنّنا غالبًا ما نكون غائبين عن اللحظة الحاضرة. قد تعيشون حياتكم بأكملها من دون أن تكونوا قد عشتُموها فعليًّا. إنَّ التركيز على النفَس مهمٌّ لأنّه يُعيد الذهنَ إلى الجسد، وأيضًا لأنّ النفَس هو الشيء الوحيد الذي نملكه وينتمي إلى الحاضر بوضوحٍ لا لبسَ فيه، هنا والآن. إذا حملتُ ذهني على التركيز على النفَس، لا أدخل إلى جسدي فحسب، بل أدخل إلى الحاضر. إنّ الوجود في الحاضر هو أمرٌ عارمٌ للغاية، وقد يكون مرعِبًا لأنّنا في مكانٍ لسنا معتادين عليه. وأظنُّ أنّ هذا أحد أسباب

هروبنا منه، فقد يكون وقعه غامرًا يفوق الاحتمال. نشعر بأنّ ثمّة أمورًا أخرى في الحاضر أيضًا، أي حضور الله. وهذه حقيقةٌ عظيمةٌ ومذهلةٌ وغامضةٌ حتّى إنّني لا أستطيع التعامل معها، لذا أعود إلى واقعي الخاصّ -ورقة البحث التي أُعدُّها أو الحفلة التي أُخطِّطُ لها- الواقع الأصغر الذي يسعني أن أسيطر عليه وأتحكّم فيه. نرى الكثير من الكنائس تُنظِّمُ أنشطةً كثيرة، حتّى إنّها تُضاعف أحاديثها وبرامجها خلال الصَّوم. ماذا لو توقّفنا عن ذلك؟ ما الذي نهرب منه؟

يقول القدّيس نيقوذيموس إنّ التنفُّس يشمل الرئتين والقلب؛ ومتابعة النفَس ليست عودةً إلى الجسد وإلى الحاضر فحسب، بل السَّماح للذهن بأن يعود إلى مكان القلب. لا يشجّع الناس ذلك، لأسبابٍ مختلفة، لكنّ التنفُّس هو أمرٌ نفعله طول الوقت؛ وإذا كنتم تردّدون صلاة يسوع بإيقاعٍ منتظم، أرى أنّه من الطبيعيّ جدًّا أن يتّحد هذا التكرار سريعًا بنفَسكم. لا أدري كيف لا يكون ذلك ممكنًا. يقول الكثيرون القسمَ الأوّل من الصلاة مع الشَّهيق والقسم الثاني مع الزَّفير، وهذا ما يوصي به كتابُ الفيلوكاليا ونصوصٌ أخرى. نقول مع الشَّهيق: "يا ربّي يسوع المسيح، يا ابن الله"، ومع الزَّفير: "ارحمني أنا الخاطئ". تصير الصلاة جزءًا من تنفُّس الناس، وأحيانًا تأخذون نفَسًا من دون نيّة الصلاة فتجِدون أنفسكم تردِّدون الصلاة لأنّها تتّحد بأنفاسِكُم. يجب أن يكون هذا الأمر أساسيًّا.

تكلَّمنا على البذرة الدفينة وفكرة تفعيل إمكانات الروح القدس. إنَّ صلاة يسوع تحديدًا هي عمليّة التنمية هذه. لماذا؟ يقول بولس الرسول في 1 كور 12: 3: "ليس أحدٌ يقدر أن يقول "يسوع ربّ" إلّا بالروح القدس". هذا ليس تأمُّلًا شرقيًّا (مانترا) بل هو استدعاءُ الاسم الإلهيّ، ومثل الأيقونة، يأتي مع الاسم حضورُ المسيح. كيف يتحقَّق حضورُ المسيح في العالم؟ من خلال وساطة الروح القدس، دائمًا. إذا كان يسوع المسيح حاضرًا في مكانٍ ما، فهذا بفضل نشاط الروح القدس ووساطته. فكِّروا في بشارة والدة الإله حيث نقلَ رئيسُ الملائكة الرسالة، وسألته: "كيف يكون هذا؟"، فأجابها ببساطة: "قوّة العليّ تُظلّلكِ". نقول في دستور الإيمان: "تجسّدَ من الروح القدس ومن مريم العذراء". تجسّدَ الأقنوم الثاني من الثالوث القدُّوس في حشاها بوساطة الروح القدس. هكذا يبدأ لوقا إنجيله، ويبدأ سفر أعمال الرسل بسردِ كيف اجتمع الرُّسل في أورشليم حيث طلبَ منهم المسيحُ أن يمكثوا، منتظرين القوّة من العلى. انحدرَ الروحُ عليهم وحوَّلهم من مجموعة عمّالٍ إلى جسد المسيح. لدينا حدثان متوازيان في أعمال لوقا: تظليل قوّة الروح القدس التي جعلت حضور المسيح مادّيًّا، والتظليل في العنصرة الذي جعلَ جسدَ المسيح المستيكيّ مادّيًّا.

في كلّ قدّاسٍ إلهيّ، تتحوّل من جديدٍ مادّةُ حشا البتول، ومادّة الجسد الرسوليّ، ومادّة الخبز والخمر الذي نضعه على المائدة المقدّسة. فخلال الاستحالة، نستدعي الروح القدس ليُحوِّلَ القدُسات إلى "جسد المسيح ودمه". لا يستطيع أحدٌ أن يقول "يسوع" من دون الروح القدس. وهذه ليست مجرّد فكرةٍ بسيطةٍ وعذبة؛ يوجد معنى لاهوتيٌّ عميقٌ هنا. ولهذا، لدينا صورة الروح بوصفه ختمًا. عندما يأتي الختم وينطبع في المادّة، لا يُخلّف صورةً له، أي لا تحصلون على صورة القالب المطّاطيّ بل على الصورة التي يحملها. والصورة هنا هي المسيح. الروح هو الختم لكنّ الصورة على الختم هي المسيح؛ ولهذا، يُحوِّلُ ختم المعموديّة المعمَّد إلى مسيحيّ، هذا مسحنة. إنَّ استدعاء اسم يسوع في صلاة يسوع وحضور الروح القدس في القلب هما أمران مرتبطان ارتباطًا وثيقًا.

غالبًا ما يقول الناس: "حسنًا، يبدو هذا جيّدًا، لكنّني لا أملك الوقت لذلك. أنا شخصٌ مشغول!". أفهم أنّنا كلّنا مشغولون في هذه الأيّام، ولكن عندما نقول: "ليس لديّ الوقت"، فلننتبهْ ألّا نكون قد عنَينا فعليًّا "لا أومن بإمكانيّة تحوُّلي الشخصيّ". يبدو أنّني لا أجِدُ الوقتَ مُطلقًا لأمورٍ معيّنة، لكنّني أجِدُ كلَّ الوقت الموجود في العالم لفعل الأمور التي تُمتعني.

نقلتها إلى العربيّة أسرة التراث الأرثوذكسيّ

Source: Fr. Maximos Constas (2016). "Knocking at the Door of our own Hearts", in *Prayer of the Heart in an Age of Technology and Distraction*. Published by *Patristic Nectar Publications,* Retrieved online from: OrthoChristian.